



Princeton University Library



32101 054943087

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

*This book is due on the latest date
stamped below. Please return or renew
by this date.*

--	--

قررت وزارة المعارف مطالعة هذا الكتاب في مدارسها الثانوية والعلية سنة ١٩٢٢

التبوء بساء

لفيكتور هوغو

تعرّب

محمد حافظ إبراهيم

الجزء الثاني

« الطبعة الثانية — حقوق الطبع محفوظة »

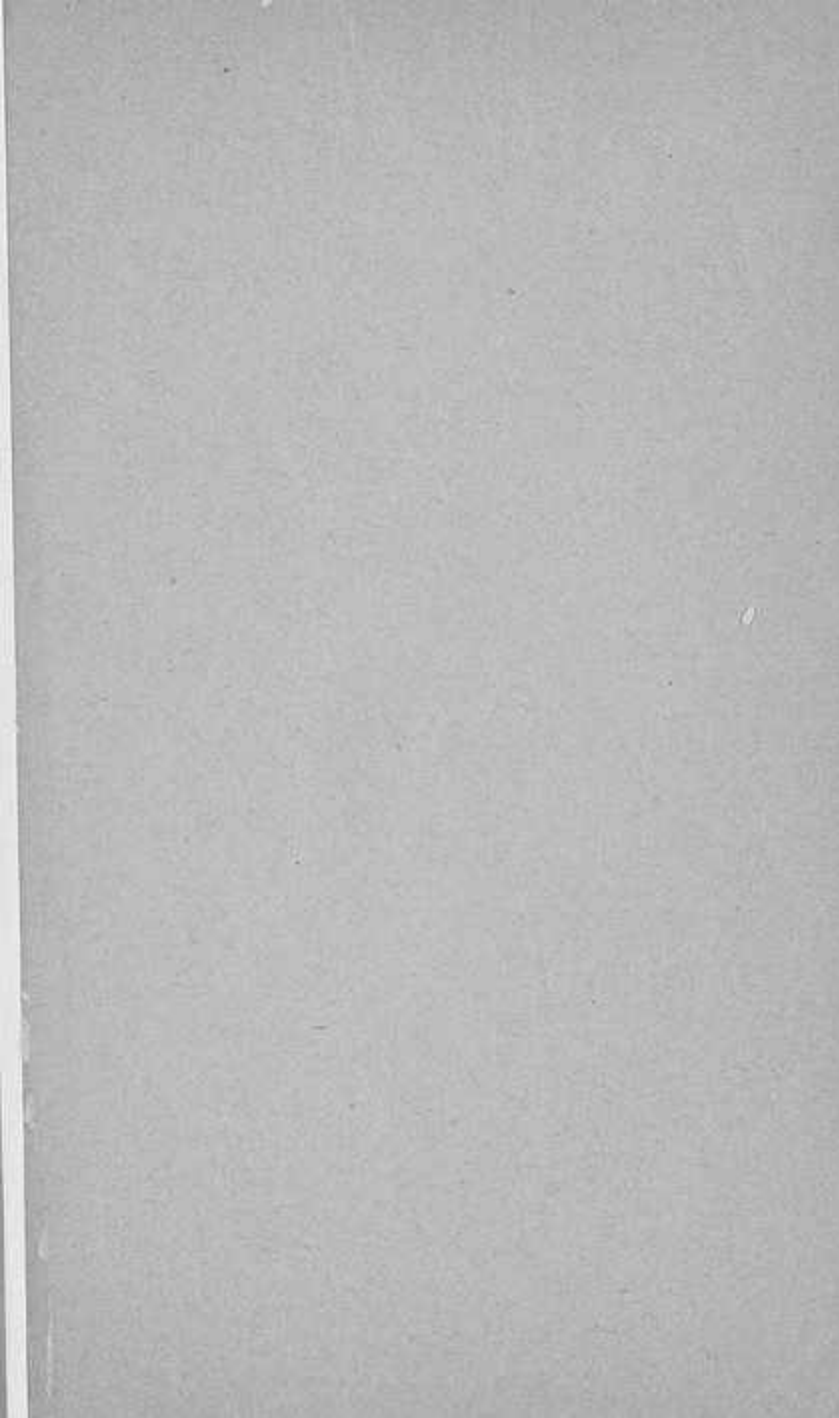
طبع بنفقة إبراهيم زيدان بتصرّح من المعرب

١٣٤١ — ١٩٢٣

يطلب من مكتبة الهلال بالفعالة بمصر

المطبعة الرحمانية

بالخرقش بمصر رقم ٣٥



مكتبة

V. Hugo

أقررت وزارة المعارف مطالعة هذا الكتاب في مدارسها الثانوية والعليا سنة ١٩٢٢

التيوتسك

لفيكتور هوجو

تعريب

محمد حافظ أبراهيم

الجزء الثاني

« الطبعة الثانية — حقوق الطبع محفوظة »

طبع بنفقة
أبراهيم زيدان بتصریح من المعرب

١٩٢٣ — ١٣٤١

يطلب من مكتبة الهلال بالقاهرة بمصر

المطبعة الرحمانية

بالخرنقش بمصر رقم ٣٥

RECAP!

(Arab)

PQ 2286

. A62

1923

ju2' 2



عاصفة تحت جمجمة

أو

« فَوْرَةٌ »

قدّمنا بين يدي القارئ ما كان من أمر (جان قالجان)
منذ ابتد ذلك الغلام قطعة الفضيّة، وقد رأى كيف حال^(١)
هذا الرجل إلى رجل آخر وكيف فعلت في نفسه كلمات
العابداً فاعيلها فأختطفته إلى المعبود. وأخرجته من مسلاخ^(٢)
الشّرّة^(٣) والضعيفة وأسكنته في إهاب من الفضيلة
بدأ بالمبالغة في الاختفاء والتنكر وثى يبيع تلك
الآنية الفضيّة ولم يبق منها على غير الشمعدانين^(٤) ولعله
أبقى عليهما ذِكْرًا لذلك الصنيع
وجعل ينسل في سِرٍّ^(٥) من الناس من قرية إلى قرية

(١) تحول (٢) جلد (٣) الشر (٤) فارسي معرب (٥) أي خفاء

حتى مسح أرض فرنسا ودوّخ بها كلّ مكان وألقى
عصاهُ بقرية (منتراي سيرمير) وأدرّ الله له أخلاف^(١)
الرزق فأثرى ، ثم مكّن لنفسه حتى جعلها بمنجاة من
المطاردة

ولبث ما شاء الله يرى أن السعادة في يقظة الضمير .
فكان كلما بَضَعَ^(٢) الندمُ على ماضيه من فؤاده
بُضْعَةً شَعَرَ في نفسه بِوَفْرِ تلك السعادة . ولقد تكفّلت
حسنات الشطر الثاني من حياته بغسل حَوْبَاتِ^(٣) الشطر
الاول

وكان رأسه مُضْطَرَباً لفكرتين لاثالثة لهما : أن
يُخْفِيَ اسْمَهُ وأن يَقِفَ حياته على الفرار من المخلوق والرجوع
إلى الخالق . وقد أمتزجت هاتان الفكرتان بعقله أمتزاجاً
حتى حالتا إلى شيء واحد ، أصبح له السلطان المطلق على
إرادته فأستقرّتا في قرارة نفسه وتناولتا ما وراء وجدانه ،

(١) الندى للمرأة والأطباء للكلبة والأخلاف للنافقة (٢) قطع (٣) الحوبة الذنب

فهما اللتان دَعَتَاهُ الى الانزواء فلبى وإلى البرّ فمضى وإلى
التقشّف فأطاع

وَتَمَرُّهُ بِمَحَاتٍ يَقَعُ فِيهَا بَيْنَهُمَا الْعِرَاكُ فَتَدْفَعُهُ الْأُولَى
إِلَى أَمْرٍ وَتَثْنِيهِ الثَّانِيَةَ عَنْهُ وَلَكِنَّهُ مَا كَانَ يُحْجِمُ لِحْجَةً عَنْ
إِيْثَارِ ثَانِيَتِهِمَا عَلَى أَوَّلَاهُمَا ، فَهُوَ يُؤَثِّرُ الْفَضِيلَةَ وَإِنْ جَرَّتْ
إِلَى هَتِكِ سِتْرِهِ ، عَلَى طُمَأْنِينَةٍ نَفْسِهِ وَتُلُوجِ صَدْرِهِ
فِي اخْتِفَاءِ أَمْرِهِ

أَلَمْ يَلَيْهِ كَيْفَ غَامَرَ بِنَفْسِهِ يَوْمَ الْعَجَلَةِ فَأَنْقَذَ (فَوْشَلْمَانِ)
(وَجَافِيرِ) يَلْقَى عَلَيْهِ نَظَرَاتِ تَسْكَادٍ تَحْرِقُ شَغَافَ قَلْبِهِ وَكَيْفَ
لَيْسَ الْحَدَادُ عَلَى الْعَابِدِ وَإِنْ طَارَتْ حَوْلَهُ فِي ذَلِكَ الشَّبَهَاتِ
فَقَدْ قَامَ بِنَفْسِهِ أَنْ أَوَّلَ فَرَضٍ عَلَيْهِ إِنَّمَا يَجِبُ الْقِيَامُ بِهِ
لِغَيْرِ شَخْصِهِ

عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَشْهَدْ مُشْهَدًا لِهَذَا الْعِرَاكِ كَانَ أَشَدَّ هَوْلًا
وَأَعْظَمَ مَرَاسًا مِنْ ذَلِكَ الَّذِي مَرَّ بِهِ حِينَ دَخَلَ عَلَيْهِ (جَافِيرِ)
وَكَلَفَظَ أَمَامَهُ ذَلِكَ الْأَسْمَ الَّذِي دَرَجَ فِي أَثْنَاءِ النَّسِيَانِ
فَاضْطَرَبَتْ لَهُ نَفْسُهُ مِنْ دَاخِلِ الْجَسَدِ وَاسْتَحْذَى عِنْدَ سَمَاعِهِ

وعجب لذلك الجَدِّ الذي لا يفارقه العِثار ، وهجم عليه أمرٌ
لا قِبَلَ له به ، فمرت به تلك الهزات التي تؤذِنُ بِفَوْرَةِ
النفس ، فَأَنَحْنِي الأَحْنَاءُ الدَّوْحَةَ تُدَانِيهَا العاصفة أو الجندي
يَهَيِّئُ للأَقْتِحَامِ

وهم وهو ينصت لـ (چاقير) أن يطرح رداء التنكر
ويطير الى ذلك السجن الذي أودعوه (چان ماتيوي) فيقتلعه
منه ويَحُلُّ محلَّه ولكنه لم يلبث أن عاودته الأثرَة فأكبر
هذه النزعة النبيلة وتراجع أمام تلك البُطولة

ولو كان ممن تركو^(١) عنده العوارف لَزَكَتْ عنده
عارفة العابد ، وَلَغِيْرَتْ منه تلك السنون التي طواها بين
الزهد والتوبة ، وَلَغَبِرَ يَمْشِي قَدُماً بِقَدَمٍ مَطْمَئِنَّةٍ وَصَدَرَ
مثلوج الى تلك الهاوية المفتوحة أمامه فهناك عند قرارها
قد أَلْقِيَتْ مفاتيح الجنة التي كان يَنْشُدُهَا

نعم كان الا خَلَقُ به أن يكون ذلك الرجل ولكنه
لم يَكُنْهُ وإليك ما كان يجول في نواحي نفسه

(١) زكت العارفة أي اثمر الجبل

غمره عند الوهلة الأولى شعورُ المحافظة على النفس ،
 خفّض من جزعه وتصامّم عن نداء ضميره وأهاب^(١) بحلمه
 حتى اذا تاب اليه أضمر في نفسه وهو ينظر الى (جاقير)
 أن يتلوّم^(٢) بعض التلوّم في الحكم على مصيره
 وليث سراً^(٣) يومه وعلى ظاهره من السكون طلاءً
 وفي باطنه من الجزع صلاء ، فلم يفكر في ذات غيبه^(٤) ولا
 في الأخذ بالحيلة مما عسى أن ينزل به من العوادي . ولا
 بدّع فقد تخوّنه الحزم وقرّعه (جاقير) بقارعة أطارت
 صوابه وزلزلت أركان نفسه وكان مبلغ علمه بحالته أنه
 أصبح تحت كلّ كركل كارثة لا يدري متى تفلّته
 انكفأ الى حجرّة (فانتين) يعودّها وجلس على مقربة
 من فراش آلامها وأطال الجلوس ، فقد كان على نية سفر
 لا يعرف أمده . على أنها نية مبهمّة لم يضرب فيها رأيا ولم
 يستشر عزما ، فقد مرّت به الفكرة أبابيل^(٥) وهو لفرط
 خياله لا يكاد يميز بين صورها

(١) صاح (٢) يتأنى (٣) طول (٤) ذات الغيب أى المستقبل (٥) جماعات

وما أدري أكانت به نفسه أم كان به ذلك السجين
 أم تلك المحتضرة أم وليدتها المنبوذة بذلك النزل ، فكان
 يقول في نفسه ما ضرتني ألا أريم^(١) مكاني فأرغب مواقع
 القضاء في هذا الحادث وأنا وادع لا تسمو إلي الخطوب
 ولا تلتفت الظنون ، وهذه عجلة (سكوفير) تحت يدي
 فتي أحسنت الشر ركبتي عليها النجاة

حضر بعد ذلك وقت طعامه فأصاب منه إصابة مقدرة
 ثم دخل مخدعه وهو مذهوب به ، فخلا إلى نفسه
 وأنعم التفكير وجعل يقلب وجوه الرأي فتعاطفه الأمر
 وأخذت عليه أفواه السبيل وسدت مسارح النجاة

ساورته المخاوف وفاعته^(٢) الأوهام ، فقام إلى الباب
 فاستوثق منه وإلى المزلاج فأثبتته حتى ظن أنه في مأمن
 من الطارق والطارى ، ثم أقام خلفه المتاريس طلباً للمزيد
 في الأمان وأطفأ السراج لأنه لم يكن يسكن إلى النور

(١) أبرج (٢) فعلت فعل الانفى

ثم قال في نفسه ألا أزال مرثياً (عن أي عين يأتري كان
يريد أن يتواري) ؟

ياويله إن ذلك الذي كان يحجُّ في الفرار منه ويقيم
في طريقه الحوائل ويستعجد بالظلام مازال معه في حجرة
واحدة

ذلك هو ضميره وتلك هي عينه
ولعله كان يعالج خدعة نفسه حين ظن أنه كان
في عزلة وأمن ، وأن الباب والمزلاج يحولان بينه وبين
ما يخشى

فجمع أشتات نفسه حتى خال أنه صار جميع الفؤاد
ثم عصب رأسه بيديه واعتمد برفقيه على منضدة
كانت أمامه وأنشأ يحدث نفسه

أين أنا؟ وما عسى أن يكون ما أنا فيه؟ ترى هل
كذبتني العين حين رأت (جافير)؟ وهل خانني السمع
حين أفرغ فيه اسم ذلك الرجل؟ (جان متيو) أترأه يشبهني
إلى حد أن أخذوه بي ، فويل لي . لقد كنت بالألمس آمناً

في سِرْبِي وأراني اليوم في قلق لا أدري متى ينطوي أجله
فانظر على أيّ سيّال من الألم قد بات يتمامل هذا
البائس الذي ضاق محيط عقله عن جَوَلات تلك الأفكار
التي تدافعت في رأسه كالأمواج حتى انه ليُدْأَفَمها عنه بأيدي
وكان يحاول أن ينتزع من كلّ أولئك يقيناً يجد له برّداً
على قلبه ولكنه لم ينتزع غيرَ الحيرة والمضض
وكاد يلتهب رأسه فقام (١) الى النافذة ففتحها ونظر
الى (٢) السماء فإذا بها ضريرة النجم (٣) ساقطة النواحي (٤) فعاد
وأرتمى على مقعده

ومرّ به قطع من الليل وهو على تلك الحال ثم أطافت
برأسه صُورٌ مبهمَةٌ أخذت تتجمع وتتبين حتى لفتت اليها
تأملُهُ فلم يجد بها بعين الحقيقة لمحة أملت ببعض أطرافها فعاد
الى نفسه بعض الشيء وبدأ يشهد على نفسه أن الحالة التي
نزل اليها انما هي من صُنع يده — حالٌ حقيقة باليوم
لا يلبسها المرء (٥) ولا يستقر عليها العيُوف (٦)

(١) يحجبها السحاب (٢) شديد الظلمة (٣) ذو المروءة

ومن نظر في أمر هذا البائس وقر في نفسه أنه علي
زهده وتقصفه لم يأت حتى الساعة شيئا مذكورا اللهم إلا
ذلك الثقب الذي ثقبه ووأد فيه اسمه ووَدَّ لو نسجت عليه
الأيام طبقات من النسيان لا ينفذ إليها شعاع من الذكرى
فكان إذا خطر له أن سيأتي يوم يذكر فيه هذا الاسم
ذاكرٌ نفس ذلك الخاطر نفسه في نهاده ونزف أنفاسه
في ليله وأغرى به سهاداً تقضُّ^(١) عليه معه المضاجع
وتطأرحه الوسواس . ولطالما كان يقول لنفسه إن هذا
اليوم إذا أوفى عليه ليذهبن بما يحيط به من راحة ونعيم
حتى إنه ليشفق أن يذهب بتلك النفس الجديدة التي ربها^(٢)
بالتقوى وتعهدا بالاحسان

نعم لقد غمر هذا الفكر شعوره وشغل أرجاء نفسه
فلو أن قائلاً قال له إن هذا اليوم لا بُدَّ آتٍ وإن تلك الكلمة
(جان فالجان) لا بد أن تثب من مكمنها وترا آى أمامك
في هيكل نوراني يهتك ستار الظامة الذي أسدلته على

(١) تمتلئ عليه قضا وقضيبضاً أى حتى (٢) ربها ورباها بمعنى

نفسك فاذا جاءك هذا اليوم فلا تبتئس به ، فلن يضيرك
أن تسمع ذلك الأسم فانه سيرفعُ منك ولا يهولك أن
ترى ذلك النور فانه سيزيد في الظلمة التي تنشدها ولا ذلك
الستار الممزق فانه سيكون أكتَمَ لِمِرْك ولا ذلك الزلزال
المروع فانه سيصبح أَدْعَمَ لبنائك فكشف عن حياتك تبلغ
منك من كتمان أمرك ، وقف أمام طيف (جان قالجان)
وقفه تخرج منها أنبل نفساً وأنبه ذكراً وأجل أمراً

لو أن قائلاً قال له ذلك لنأى عنه بجانبه ولظن أنه يعالج
المستحيل . على أن الذى كان يظنه داخلاً في باب الاستحالة
قد دخل في باب الإمكان وجرت به الأقدارُ فوق

أخذ حمله يتكشف رويداً رويداً وأخذ هو يزداد
علماً بحقيقة أمره

خَيْلَ إليه أنه قد أفاق من خَفَقَةٍ — وما أدري من
أى خَفَقَةٍ أفاق — وأنه قد رأى نفسه ينزلق في جوف
الليل على منحدر قد وقف به على حفاف^(١) هاوية ، وأنه

(١) أى حافة

قد حاول أن ينحرف عنها فأثبتته الخوفُ وقيدَه الوهم . وأنه
قد رأى تحت راية ذلك الليل خَلْقاً^(١) أراد أن يتبينه
فتنكرت له معارفُه حتى أنكره ، فألقى في رُوعه أن
الأقدار قد شبّه لها ذلك الخلقُ فظنته (جان فالجان)
فأخذته به وساقته ظمأً إلى تلك الهاوية التي لم يكن لها
بُدٌّ من أحد رجلين إما هو وإما ذلك المأخوذ به ، فعجز
عن المقاومة وترك الأقدار تجرى على أذلالها^(٢)

ولما تجلّى له نور الحقيقة أنشأ يصارح نفسه ويقول
إن مكاني في السجن لا يزال بحمد الله خالياً يطالعي منذ
ذهبت بورقة ذلك الغلام ، وإني لأشعر كأن قوة باطنة
تسوقني إليه فهو مُذكرى وإن أمتعنت في الهرب ولشدَّ
ما يرمضني^(٣) أن يقيموا فيه بديلاً مني ، وإن هو إلا عاثر
قد رمى به نحس طالعه في أيديهم فأخذوه بي فأصبحت
بفضل ذلك آمنًا في سربي فأنا مقيم هناك في لباس (جان
ماتيو) وأنا مقيم هنا في لباس (مادلين) ولكن أيسعني

(١) مخلوقا (٢) أعني تجرى في أعنتها (٣) يقضي على الرمضاء

في مُرُوءتي أَنْ أترك هذا البائس يُدْفَنُ في السجن كما تدفن
التوايتُ دفناً لا قيام معه ، ولكن تحت جنادل الخزي
والعار أم كيف يَجْمَلُ بي أَنْ أَتَدَلَّى هنا في النعم وهو يتدلى
هناك في النقم

وعلى أثر ذلك تحركت نفسه حركة يقعد عنها الوصفُ
حركة لا تمر بنفس الحى في مدى حياته غير مرات معدودات
فقد اختلجت سريره أختلاجا بعث ما كان كامناً
في فؤاده من الهواجس . وقع ذلك على أثر مزيج قد
جُمع في نفسه من الفرح واليأس والأزدراء . تلك هي
إحدى ضحِكَاتِ السرائر

قام بعد ذلك إلى المصباح فأضاءه من جديد وطرح
عن منكبَيْهِ رداء الفزع فلما سكنت عنه الروع قال
لنفسه مالى أرانى على غير أستواء وأنا بمنجاة من المكروه
وكنيت أفرق^(١) من طريق واحد طالما قدّرت أن تذهمنى
منه الدواهي ولكنه قد سُدَّ بحمد الله فأصبح (خافير)

لا يجد إلى سبيلا وأصبحت في مأمن من شر ذلك الرجل
الذي رُكبت فيه غريزة كلب الصيد فكم وقفته على
أثره حتى كاد يكشف عن أمرى - على أنها قد خاتته
هذه المرة فجرتة على أثر غيرى فليقلب على عقبه وليشتغل
به عني وليدعني أستروح روائح الأمن فقد طال عهدي بها
وليقبض على (جان قالجانه) الجديد وليبرح المدينة متى
شاء فكل أولئك لم أكن عنه مسئولاً فحسبي ما كابدت
من ألم وعانيت من جزع فلو أن رائيًا رآنى الساعة لما
شك في أنى قريب عهد بالأفاقه من سقم أو بالافلات من
برائن حادث

وإذا تأنقت الأقدار في مكروه ذلك إلا إنسان فتلك
مشيئتها وأنى للمرء أن يدفع القدر عن غيره إذا هو أعجزه
أن يدفعه عن نفسه وإنى لا أرى مبرراً لما كنت فيه من
الجزع فإن الأمل الذى كنت أتئسسه طوال السنين
والشئ الذى كان يملأ على أحلامى قد ظفرت به ، ذلك هو
الأمن وهو بغيتى فالى أشكر الله على تلك النعمة فاعله قد

أرتاح^(١) لى وتقبل منى وأراد أن أجرى فى طريقى فقد
أخذت نفسى بصحبة الفضيلة ورددتها الى التقى حتى قرئت
ورضتها على البرِّ حتى سكنت فكيف أنسى يوم دخلت
على ذلك العابد فنقضتُ إليه جملة ما مررتُ فأفرغ فى اذنى
كلمات وعييتها حتى الموت فلا مضين على هذا السنن فتلك
مشيئة الله — صحت عزيمته على ذلك بعد أن سكن خلجان
سريره وبعد أن كاد يستلُ خيط نخاعه من طول ما سأل
نفسه وفكر

لبث غير بعيد ثم قام يتمشى فى مَخْدَعِهِ وماشاع فى نفسه
سرور ولا قرَّ له قرار كما كاد يتوقع أن يكون . وما هى
إلا بعض الخطوات حتى عاوده ما كان فيه

والفكر كالبحر . فمن أستطاع أن يردَّ البحر عن العود
إلى شاطئه ، أستطاع أن يردَّ الفكر عن العود الى مناطه .
وعلة البحر فى ذلك يعرفها الملاح وهى المدُّ والجزر .

وعلة الفكر يعرفها المذنب وهي الندم . فسبحان من يثير النفس كما يثير البحر المحيط .

نعم عاد إلى ما كان فيه من حوار نفسه فكان هو المناجى . وكان هو المصغى . ولم حاول ألا يكونهما . ولكن قوة باطنة ساقته سوقاً وألحت عليه بوحيا : أن فكر في ذلك الذى سيق إلى الموت قبل اليوم بألفى سنة وقبل أن نجرب بك شوطاً بعيداً أيها القارىء ، يجعل بك أن تصير قليلاً على الأسهاب فى أمر لم نر بداً من بسطه — من المألوف أن يناجى المرء نفسه . وليس بين أهل الفكر من لم يطعم^(١) تلك المناجاة — وإنها سر من أجل الأسرار وأخفاها . ينتقل فيها الحديث من الفكر إلى السريرة ثم ترده السريرة إلى الفكر . فإذا علمت هذا حلالك أن تفهم الأسلوب الذى طال ترديده فى هذا الباب من قولنا — ثم قال — ثم صاح — قال لنفسه — كلم

(١) يذوق

نفسه — صاح في باطنه — وصيحة الباطن لا تقطع سكوت
الظاهر ، فقد تقع صيحة في الباطن يتناول الكلام فيها
كل ما في الجسم من عضو وجانحة غير الفم
تلك حقيقة من حقائق النفس وإن لم يقع عليها الحس
أو يدركها اللمس

تسأل أين هو من الأمر ؟ وما عسى أن يكون
ذلك العزم الذي أعزمه ؟ فأقر في نفسه أن كل ما أصر
عليه إنما هو باطل وأن الاستسلام للقدر في هذا الموطن
لمن إحدى الكسبر وكبر عليه أن يدع ذلك القدر
في وهمه ، وأولئك الناس في ضلالتهم ، وهاله أن يجمد عن
الحق وهم في البطل يتدققون . ورسخ في اعتقاده أن
السكوت في مثل هذه المواطن إنما هو اشتراك في الإثم
وأن الإحجام عن المفاداة خليق أن ينزل به إلى أخط
منازل الآثام

منذ سنين ثمان لم يذق ذلك المسكين طعم هذه
المرارة فترلزلت نيته التي نواها وجلس إلى نفسه يحاسبها

وهو أقسى ما يكون ، وجعل يقول إن لكل حي غاية
يعمل على إدراك مداها وقد كانت لى غاية أرى أنى قد
بلغتها ، فلم أخفق مرة في التنكر وخدعة الشرطة . ولكنها
غاية خاوية من رُوح الفضيلة . أم من أجلها ياترى فعلت
ما فعلت ؟ لقد كان خيراً لى أن أعمل على بلوغ المقصد
الأسمى فانجؤ بالروح لا بالجسد وأنزل منازل الأبرار .
فإن أعق نفسي بعقوى ذلك العابد . فالى أفتح باب الماضى
على مصراعيه وقد أمرنى العابد أن أوصده ؟ فسوأة لى .
لقد أصبحت لصاً تتعوذ منه أبالسة الشطار ، فإنهم ربما
سلبوا المرء متاعه ولم يختلسوا نفسه ، فكم من سلب قد
نجا بحشاشته

أما أنا فقد سرقت من ذلك البائس وجوده ،
وابتزت حياته وسللت راحته واغتصبت حتى مكانه
تحت الشمس وما كان القاتل بدوئى في قبج الصنيع ،
على أنى لم أحسن القتلة فهو اليوم فى سجنه ميت حتى

ذلك لعمري أبشع ألوان الأجرام . فإلى لا أفتديه
بنفسي فاسترد ذلك الأسـم وأعود كما كنت (جان فالچان)
المجرم الأثيم

فإذا طُبْتُ بذلك نفساً بُعثت بين الخلق من جديد
وخرجت من هذا الجحيم خروجاً لا يَعْقِبُهُ رجوع . فإذا
فررت منه إلى السجن فإِنما أفرُّ من جحيم الرُّوح إلى جحيم
الجسد وشتان ما بين العذابين ، ولئن لم أفعل لا كونه من
الخاصرين ، وليس بمُغْنٍ عني ما قدمته بين يدي آخرتي من
عمل دنيـاي ، إذا ما عدل بي طبعي إلى الخور فإل يني وبين
ما أعزمتـه

وهذا العابد لا فتاً أراه كَانَهُ حَيٍّ وَكَأَنَّهُ مِنِّي أَدْنَى^(١)
ظلام ، ينهني بنظره نهياً . وَكَأَنَّهُ يُؤْثِرُ أَنَّ يراني في لباس
(جان فالچان) وإن كَانَ من نسج الإِجرام على أَنَّ يراني
في لباس (مادلين) وإن كَانَ من نسج التقوى ، وإذا جاز
على الناس تنكُّرى فلن يجوز عليه

(١) أقرب شيء .

فانظروا إلا إلى الوجه وما نظر إلا إلى الضمير فقد
أستحال إلا الذهاب إلى (أراس) وإنقاذ ذلك المكذوب
عليه وإن أقدمت على ذلك لا قد من على ما يحجم عنه
الناس - تلك هي المفادة وإن عزت على النفس وذلك
هو النصر وإن كان ألماً. فلنخط هذه الخطوة فقد شاء القدر
ألا أكون نقياً في نظر الله حتى أكون دريساً في نظر
الناس

رفع عقيرته بذلك وهو لا يشعر . ثم قام إلى كتبه
فنسقها وإلى وثائق ديون كانت له على بعض المعسرین من
التجار فألقى بها في النار ثم كتب كتاباً وغلفه

ولو أن أحداً كان معه في الحجرة لاستطاع أن
يقرأ هذا العنوان (مسيو لا فيد بمصرفه شارع أرتو) وقام
بعد ذلك إلى خزانة أسرارهِ فأزعج منها درجاً ألتقط منه
محفظة

ولو رأيتَه على تلك الحال وهو يعالج هذا العمل وقد
خرج به التأمل عن حدِّ الشعور بما يحيط به لما خفي عليك
ما كان يخفيه في قرارة نفسه ولرايت أنه كان يحرك شفتيه
وتارة يرفع رأسه ويقف بنظره على الحائط وقفة المستطلع
كمن يحاول كشف سرٍّ أو استجلاء غامض

ضم إليه الكتاب الذي كتبه ، والمحفظة التي التقطها
وعاد إلى السير في مخدعه وفكره لم يبرح رأسه ولم ينحرف
عن مجراه . فكان كلما تنقلَّ ببصره رأى أمامه لوح المقدور
وفيه سطر قد خطَّ بأحرف من النور : اذهب فأَمِطْ عنك
الثام وانتسب

وعلى الأثر ترآت له الفكرتان اللتان جعلهما ملاكَ
حياته وقد سكنتا في هيكلين متباينين أخذَا يدنوان منه
نحت الليل (وما نسي القارئ أن أولاهما لم تكن غير التَّنكر
وأن ثانيتهما لم تكن غير التوبة والرجوع إلى الخالق) فجعل
يضاهي بينهما وقيس ويقدر حتى خَاص إلى الحكم بأن الأولى

إِنَّمَا رَكِبَتْ مِنَ الْإِثْرَةِ ^(١) وَحِبِّ الْعَاجِلَةِ ^(٢) فِي إِذْنٍ مِنْ
وَحْيِ الشَّيْطَانِ . وَأَنَّ الثَّانِيَةَ إِنَّمَا صَوَّرَتْ مِنَ الْإِحْتِسَابِ
وَحِبِّ الْآجِلَةِ فِي إِذْنٍ مِنْ وَحْيِ السَّمَاءِ . وَرَأَى هَذِهِ وَهِيَ
تَنْهَضُ مِنَ الظَّامَةِ وَتَلُكُ وَهِيَ تَنْبَعِثُ مِنَ النُّورِ فَرُزِقَ التَّمْيِيزُ
بَيْنَ نَزْعَةِ الشَّرِّ وَنَزْعَةِ الْخَيْرِ

ثُمَّ اسْتَبَكْتَا أَمَامَهُ فِي نَزَالٍ فَجَعَلَ يَفْكُرُ فِي أَمْرِهِمَا .
وَأَنَّهُ لِكَذَلِكَ إِذْ نَظَرَ إِلَيْهِمَا بَعَيْنَ عَقْلِهِ فَإِذَا بِهِمَا قَدْ أَخَذَتَا
تَرْبُوعَانِ وَتَعْظَمَانِ حَتَّى صَارَتَا فِي تَمَائِيلٍ الْعَمَالِيقِ . وَفِي هَذِهِ
الْأَمْحَةِ أَحْسَنُ فِي بَاطِنِهِ وَفِي ذَلِكَ الْمَلَكُوتِ النَّفْسُ الَّتِي
لَا يُعْرَفُ مَدَاهُ نِضَالًا قَدْ قَامَ بَيْنَ مَلِكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَشَيْطَانٍ
مِنَ الشَّيَاطِينِ وَسَطُ كِتَابٍ مِنَ الظَّامَةِ وَالنُّورِ . وَكَانَ
يُؤْتَى ^(٣) إِلَيْهِ أَنَّهُ فِي حِرَاسَةِ ذَلِكَ الْمَلِكِ فَشَدَّ ^(٤) مِنْهُ أَنْ
رَأَاهُ مِنَ الظَّاهِرِينَ ^(٥) وَمَرَّ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الْجَازِعُ وَأَيُّقِنُ
أَنَّ السَّرِيرَةَ وَالْقَدْرَ قَدْ أَوْفِيَا عَلَى سَاعَةِ الْإِبْرَامِ فِي أَمْرِهِ

(١) حِبِّ الدَّاتِ (٢) وَحِبِّ الدُّنْيَا (٣) تَحِيلَ (٤) قَوَاهُ (٥) الْغَالِبِينَ

فقال في نفسه لقد أوضح العابد سبيلي في الطور
الأول من حياتي الجديدة . وها هو ذا (جان ماتيو) يوضحه
لي في طورها الأخير

وعاودته حمى الفكر بعد أن هدأت هذأة فمرت
برأسه ألف فكرة وكلها تصيح به أن أمض في عزيمتك
ولكنه لم ينبج في أثناءها من خلجة شك مرت بنفسه ،
فقال أراني متعجلا في الأمر . وما كان (جان ماتيو) ممن
يعتد بهم إن هو إلا لص من السارقين

ثم عاد فقال لنفسه إذا كان هذا الرجل من السرقة كما
يزعمون فإن عقابه لا يتعدى عمر الشهر في السجن ، فإله
كتب عليه أن يطوى فيه حياته فلولاً أنهم أخذوه بي وحلّ
به شؤم أسمى الذي لبسه كارهاً لما حشروه في زمرة
المجرمين لأنزاعه تفاحتين أو ثلاثاً من شجرة لغيره ، وما
كان نائب الملك ليصنع به ما صنع لولا أن علم أن له سوائف
غير محمودة وأنه يحمل ذلك الاسم الممقوت

ثم خطر له أن يذهب فيكشف عن نفسه لعلهم
يُمهرُون هذه البطولة بالعفو عنه

دع تقديرهم لحسن سيرته وما خلف وراءه من أخيرات

في هذا البلد

ولكن هذا الخاطر لم يلبث أن محته أبتسامة مُرَّة

قد حطفت على شفتيه فقد قال لنفسه على الأثر

إن قطعة الفضة التي أنزعتها من ذلك الغلام أنزاعا

ستلبسني ثوبَ المجرم العائد، وعقابي على ذلك لا يحتمل

التأويل فهو سجن الأبد

ثم نفص عنه غرور دنياه وقطع ما بينه وبين الأرض

وأتجه الى السماء يستنزل المعونة والعزاء . وقال سبيلي أن

أقوم بالواجب فلست أتوقع شرًا مما أنا فيه . فهبني تركت

الأقدار تجرى على أذلالها ولبثت في القرية بين سيجان

من العز والشهرة وحسن الأحدث التي أعلم دون غيري

أنها متبيلة بالجريمة ، فأى نفس زكية ترضى بأمثال تلك النعم

إذا ما عُلِقَتْ بِهَا اللَّعْنَةُ . على أنى إذا رُطِبَتْ نَفْسًا بِالْأَحْسَابِ
وقضيتِ العمر في السجن مقيدا مغلولًا في لباس من العار
لا يستمطر رحمة القلوب . بلغتُ بذلك مرتبة الرضى

وهذا أمر قد فرَغَ منه القَدَرُ وما خَلِقْتُ لَأَنْقُضَ
في الأرض ما أُرِمَ في السماء

فأنا اليوم بين أمرين إما فضيلة تحتها عار وإما عار تحته
فضيلة . وتعاقبت عليه الأفكار وأطافت به الهواجس فما
نهت من عزمه ولا كفت من غريبه . وليكنها كدَّتْ ذهنه
وأفطمته بكراتها حتى وهى عن أحتمالها . فجعلت عروقه
تطرق في صفحتي وجهه كالْمَطَارِقِ وإنه كذلك إذ أدنّت
ساعة البَيْمَةِ بآتِصاف الليل وأجابها ساعة بإحدى دور
المدينة فجعل يعدُّ أَلَا ثَلَاثَتَيْ عَشْرَةَ دَقَّةً لِلْسَاعَتَيْنِ وَيُضَاهِي
بين جرس^(١) الجَرَسَيْنِ فذكر على الأثر أنه رأى عند أحد
باعة الفلزات^(٢) جرساً عتيقاً معروضاً للبيع وعليه اسم
(أَنْطُون أَلْبِين)

(١) الجرس صوت يجرس (٢) الحردوات أو ما ينفيه الكبير من خبث الحديد

ثم أحسن البرد فزاد في نار المدفأة وغاب عنه أن
يُغلق النافذة ، ثم وقع في ذهوله من جديد وحاول جهده
أن يذكر ما كان يجول في نفسه قبل أن تنصاف الليل
فغمزه النسيان ولكنه لم ينشب أن يخرج منه إلى الذكر
فقال : لقد ذكرت أنني عقدت النية على الذهاب وإمالة
اللثام

وخطرت له ذكرت (فانتين) فلمح بين ظلمات هذه
الهُواجس وميض نور لم يكن يتوقع رؤيته فتغيرت حوله
وجوه المناظر

وصاح : ويل لي لقد أعمانى حب الأثرة فلم أفكر
في غير نفسي وأراني قد قصرت همتي على أمرين إما التنكر
وفيه نجاة الجسد وإما الظهور وفيه نجاة الروح

ولقد خاصمت نفسي إلى نفسي فكنت قاضيا قد جمع
بين العزة والهون ، وكنت مجرما قد ضم بين النبيل والخسة
وهذا لعمر الله لون من ألوان الأثرة ولو ملأت إلى

الأيثار لبدأت بغيري

فهبني ذهبت اليوم ، وكشفت عن نفسي فساقوني إلى
السجن وخلقوا سبيل (چون ما تيو) فإذا يحل بعدى بهذا
البلد الذى أغناه الله بي فأقمت فيه المصانع وأيقظت الصناعة
وشيدت دورا للعاملين وأخرى للعاملات وكفلت الأيتام
وحبست الأرزاق على الزمنى وكنت لهم بمنزلة الوقود
من التنور واللحم من القدر

فهم يستمدون منى حياتهم وأنا محور تجارتهم وموئل
عفااتهم ومثابة^(١) أرازقهم وبى أخصب عيشهم وأخضرت
أعوادهم ولم يكونوا من قبل شيئا مذكورا

دع تلك البائسة المضعوفة التى أصبحت هامة^(٢) اليوم
أوغد بعد أن ابتدأت خدرها وهوت من سماء طهرها ،
وأنا الذى أخرجها عن أفق العفة وكنت أذنًا للسماعة بها
فطرحتها من المصنع حين لا موئل ولا عائل فأكلت
بثديها وكنت لها من الظالمين

(١) محل (٢) يقال فلان أصبح هامة اليوم أو حضر حيته

وتلك الطفلة المنبوذة وقد عاهدت الأم على نجاتها
 فما أصنع بعهدى معها إذا نزلت اليوم فأت الأم وأصبحت
 الطفلة تحت رحمة الاتفاق يقذف بها القدر فتلقفها الغير
 فلننظر ما ينجم من الضرر في حالي الملبث والذهاب
 ثم وقف عند هذه النظرة فعراه ضرب من الحيرة
 أعقبته رعدة مرّت كأن لم تكن . فتمكّن من نفسه
 وقال ليذهب ذلك الرجل إلى السجن فقد سرق . ومالي
 احسن به الظن فأدفع عنه الإثم ، فلا مكثن هنا وأثمر
 هذا المال فاذا أحسنت عليه القيام ولدلى في مدى عشر
 عشر سنين ألف أنفقها في وجوه البر ، وليس بي أن
 أعمل لنفسي فلست ممن يتربحون في الجليل ، فإذا استبحر
 البلد وماج بأهله ولدت القرية مدينة وولدت الدسكرة^(١)
 قرية وأطلع العراف ضيعة^(٢) فتحيا الصناعة وتنمو المصانع
 وتكثر المناسج وتسد الأسر فيموت البؤس وتموت

(١) المعروفة بكلمة عزبة (٢) أى الارض المزروعة أو الافندة

بموته الآثام ، فلا قتل ولا سرقة ولا فسق ولا فجور ،
وتنعم تلك البائسة بقرب طفلها .

لقد كنت محمقا حين قطعت بالسفر ، وما كأنت آفئ
في ذلك إلا الأثره ، ولو أني ذكرت غيري لما هممت بركوب
ذلك الخطل وإنها لضلة قد نى الله عنها عناني

أستحي نفسي أئيمة وأميت أنفسا زكية وأتوقع
على هذا أجرا . بسل^(١) على أن تموت (فانتين) وهي على
ظلماً إلى رؤية طفلها وأن تهلك الطفلة ولا تعرف لها أمّاً
كل ذلك من أجل مجرم لا أراه إلا خليقا بما حلّ به
من العقاب ، ولا أحسب إلا أنه ربّ سواف في سوء
فلا يضيره أن يقطع المرحلة الأخيرة من عمره سجيناً
كان أو طليقاً .

ولو أن لتلك الطفلة كافلاً غيري لما حرّبتني الأمر فاذا
أجرت باللبث ههنا ، فعلى إجرامي وإن هي إلا غمزات

(١) أي حرام

من الندم أجد لها مسأً في الفؤاد ، فلا صبرن على سعيها
ففيه نعيم لا أناس ليس لهم دوني من ولي . وهأنذا وطئت
النفس على عيش ظاهره الرحمة وباطنه العذاب . ذلك هو
عين الاحتساب

ثم طفق يمشي في مخدعه وقد تبسّطت في هذه المرة
نفسه ورضى عن عقباه وشجذ عزيمته على المضى فيما
رسمه

إنما تلمس الحقائق في دياجير أغوار الفكر فتراها
كحجر الماس لا يلتقط إلا من ظلمات المناجم بين
سوادين من فحم وليل - خيل إليه أنه هبط إلى تلك
الانوار فسلك في أشدّها حلوكه وأبعدها مدى ، ثم
جعل يتجسس بيديه في تلك الدُّجينة ^(١) حتى ظفر بحجرة
من ذلك الماس أو بحقيقة من تلك الحقائق وأنه ليقبض
عليه إذ تفجر منه نورٌ كاد يُعشى بصره ، فصاح ها أنذا
قد وجدت ها هو ذا في يدي مفتاح طمسها

فأنا (مدلين) وسأكونه ما حييت فلا يسرني أن
أكون (جان فالجان) ومالي أقولُ جان فالجان وأنا لا أعرف
خلقاً قد ركب عليه هذا الأسم، فإن كان حياً كما يزعمون
فليتول أمر نفسه ولا أحسب هذا الأسم الاطائر شؤم
له سباحات تحت الليل فإذا عن له رأس قد اتوا القدر
وقف فوقه فاضطرب ثم انقض عليه فطاح به

ثم نظر في مرآة له صغيرة وقال لقد رفيت عني
هذه العزيمة فصرت بعدها غيري قبلها .

ثم خطا خطوات ووقف يخاطب نفسه .

لتصنع العواقب صنعها فقد قضى الامر وأستحال
غير الإقدام على أنى لأزال أرى آصرة من الولد تربطني
بهذا الأسم فمن الكيس قطعها

وأشياء في هذا المخدع ربما وقفهم على أثرى ومهدت
السبيل للشك في أمرى

وهن وان كن صوامت فإنهن أفصح عند الشهادة
لسانا من الناطقين ، فمن خطل الرأي أن أبقى عليهن

ثم ضرب بيده إلى جيبه فأخرج كيساً ألتقط منه مفتاحاً أولجه في ثقب قفل لا يكاد يرى لدقته فلکم خدع مكانه عين الناظر ليكمونه بين خطوط دكناء رُسِمَتْ متناسبة الاوضاع على ورق كُسى به الحائط . فأنفرج الحائط عن مخبأ كانت تواريه مرآة مُضَلَّلَةٌ نصبت بين زاوية الجدار وحجاب المدفأة لتصرف عين الناظر . وكان في ذلك الخبأ أهدامٌ بالية ومعطف أزرق وسراويل^(١) رث وجراب عتيق وعصا غليظة مقمعة بالحديد . ذلك هو متاعه الذي كان يحمله يوم مرَّ بمدينة (دنى) سنة ١٨١٥ وكان يُخفيه عن نظره هرباً من ذكرى السجن ويُظهر الشمعدانين حباً في ذكرى العابد

ثم رمى الباب بنظرة عَجَلَى كأنه يخشى الغرة رغم الوثوق من الإيصاد ، وأهوى كاللمح على ذلك المتاع دون أن يُسَعِّده بنظرة منه فأحتضنه ، وألقى به في النار ، ذلك

(١) سراويل مفرد والجمع سراويلات

المتاع الذي طالما قدّسه ولم يبالي الخطر في الإبقاء عليه
وما هي إلا لحظة حتى أشرق المسكان بنور أحمر رقصت
أشعته على الجدار الذي يُسامته ، فعلم أن النار قد أتت على
متاعه إلا عصاه فقد بقي فيها ذماء ^(١) دَلَّ عليه شرره كانت
لا تزال ترمي به إلى وسط الحجرة

وسطع ربح الجراب وهو يحترق بما فيه من الخلقان ،
وظهر على أثره في الموقد شيء لمّاع لو دانيته لرأيت أنه لم
يكن غير تلك القطعة الفضية — قطعة الغلام (ساقويار)
ووقع نظره على الشمعدانين وقد أضاءتهما النار فانعكس
لهما على الموقد ما أدى أي لون من ألوان الأشعة ، فصاح
وهذان أيضا لامعنا ^(٢) الإبقاء عليهما ثم ألحقهما بمتاعه فلم
يلبثا أن صهرا وحالا إلى سبيكة منكورة — ثم خطا إلى
الموقد فأنحنى عليه وأصطلى قليلا وتنفس وقال نعم الدفء
ولم يكذب محمد مغيبه أمره حتى شعر كأن صوتا
في داخله يصيح به (چان فالچان) (چان فالچان) فقَفَّ ^(٣)

(١) بقية حياة (٢) يقال: منى الشيء ومعناته ومعنيته (٣) قف شعر رأسه أي وقف

شعر رأسه واستطيرَ فؤاده وكان كمن يسمعُ صوتَ الوابل
ثم أخذ يتسمع وإذا به يناديه : هنيئاً لك لقد اكملت صنعك —
أتلقت الشمعدانين — نجوتَ من ألم الذكري — نسيت
العابد — نسيتَ معه الماضي — سُقَّت (جان ماتيوي) الى
الهلاك — هنيئاً لك لقد نجوتَ — فكن شيخاً وقوراً
ودع اسمك يحمل البلاء الى غيرك فيمضي فداءً لك — كن
عريض الجاه خصبَ الفناء عُلِّ من شئتَ من الناس ،
واكفُل من شئتَ من الأيتام

ولا تنس وأنت مستقرٌّ في الدَّروة من الجاه ومتدلٌّ
في الجزيل من النعم أن تذكر ذلك الذي يلبس في السجن
لباسك ويخطرُ في قيودك وأغلاك فليهنئك ما قدمت
يداك

فتفصّد جبينه عرقاً ووقف ساهم الوجه سادر البصر
قد شُدَّتْ أهداً به الى بقايا الشمعدانين . كل ذلك والصوت
لا ينقطع عن مناداته (جان فالچان) إنك لا تعدم أن ترى

حولك قنابل^(١) من الناس ترتفع أصواتهم بالدعاء لك والثناء عليك ، فلا تنس وأنت في مظهر سلطانك ذلك الصوت الخفى الذى لا يحجبه عن سمع الله حجاب ، وأتق دعوة تهض من ظلمة السجن الى جوانب العرش فتجذب في طريقها دعواتهم وتقطع سبيل العروج الى السماء فتسمى ومالك غير اللعنة من خلاق^(٢) وليئس عقي الدار وأخذ ذلك الصوت الذى كان يحدته كالهامس فى أذنه يعلمو ويعظم حتى صار له دوى كاد يفتق طبلتى مسمعية ، وبعد أن كان يشعر أنه صوت من أصوات الضمير قام بنفسه أن الذى يكلمه لم يكن غير حى من الاحياء تحتوى الحجرة فرمى بصره يطالبه فى أركانها وصاح وهو لا يعي : من المتكلم ، ثم ضحك ضحكة من به مس — وقال لشد ما وهمت فليس هنا غيرى

وما كانت الحجرة خالية كما كذب نفسه ولكن الذى

(١) جماعات (٢) أى نصيب

كان فيها لم يكن ممن تقع عليه العيون — ثم عاود المشى
يخطى رتيبة^(١) تبعث الأسي وتثير الشجن فكانت تقطع
عليه سلك التفكير وتقطع على ذلك النائم تحت حجرته
غزاره^(٢) فيثب من فراشه مروعا مذعورا

على أن هذا المشى كان يُروح عنه ويُململه في آن . وقد
تدفع الملمات صاحبها إلى الحركة رجاء أن يُصيب في طريقه
من يشد منه برأي ينفس عنه بنصح

وأجازت به آنة نكر فيها نفسه ومكانه ثم نبهه فزع
ملا جوانب صدره ، فتراجع مخذولا أمام كلتا العزيمتين
اللتين اعتمهما وبدا له فبح ما أضمر فأيقن أن لا خير
في الأولى ولا أجر في الثانية . وقال ما أشأم هذا الاتفاق الذي
رمى (بجان ماتيو) بين أيديهم فأخذوه بي وأنظرني ههنا
حتى مكنت لنفسي فلكت يومى وبلغت من الثروة ما
بلغت . ثم التفتت نفسه التفاتة إلى حاضره وأخرى إلى ماضيه
وقال (اكشف عن نفسي) قالها ونفسه تكاد تسيل جزعا

(١) الشيء الرتيب هو الذى يقع متشابهاً على وتيرة واحدة (٢) الغرار النوم القليل

فسلام على عيشٍ لبسته مضطراً أو خلعتُهُ كارهاً . فلقد
 آن للنفس أن تودع ما هي فيه ، فتستبدل ^(١) الا ذلال بالاجلال
 والضيق بالسعة والنصب بالدعة ، وللعين أن تستبدل
 عبوس السجان ببسمات الشكر عند الاحسان ، وللأذن
 أن تستبدل رنات السلاسل بتغريد البلابل عند اقبال
 الربيع في وشية البديع ، وللرجل أن تستبدل الحجل في القيود
 بالتمنقل بين المروج والنجود ^(٢) وللأنف أن يستبدل ريح
 صدأ الحديد بأريج الزهرات والورود ، وللجنب أن يستبدل
 خشونة المضاجع بلين فراش المخادع ، وواها من وحشة
 سجن الوحدة والتقلب في ألوان الشدة ، وفي ذمة الله أيها
 الدارفا كان أخصب أيامك وأقصر أعوامك وأنت أيها
 الخادم المجوز فما كان أيمن صباحك وأبرك صلاحك .

(١) يقال استبدل الطربوش بالعمامة اذا أراد ترك العمامة قالباء تدخل دائماً
 على المتزوك قال الله تعالى استبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير
 في هذه الصفحة وحدها قد أضفنا كلمات من عندنا دعانا اليها حسن المقابلة

في المعاني واطراد القول

(٢) جمع نجد أي المرتفع من الارض

وقد آن لي وأنا العائر المجدود أن أستدير عيشا أخضر ،
لأستقبل عيشا أغبر ، وألبس رداء أحر ، نسجته يد البلاء
الأكبر ، وخاطه الشقاء لمن يسوقه القضاء . اللهم غفراً .
أفي مثل هذه السن وقد نيفت على الخمسين ارُدُّ الى السجن
وأنا أعلم الناس بما فيه من عذاب وهون . ألا أتي لو كنت
في عهد الشباب لا ضلّعت بخطبه أمّا وقد أخذت مني
الأيام فلا طوق على مُصَابَرَةِ الشدائد

يَهْرُمُني الحرسُ ، أَخاطَبُ^(١) بالكف ، تأخذني
سياط السجانين ، دمع عصا كبيرهم : أُمسي عاريَ القدمين
في حذاء من الحديد . أمدّ ساقِي لمطرقة القين^(٢) الكشف
في الصباح والمساء ليبلو قيودها ويمتحن أغلالها ، أصبح
هدفاً لأعين الزوّار فيكلما مر بي أحدهم قالوا هذا هو
(جان فالجان) الشهير الذي كان شيخنا (لمتراي سيرمير)
فاذا جاء الليل عادوا بنا الى السجن ونحن نسبح
في غدران من العرق وقد كدّنا الموت كلون بعدابنا ، فندخلُ

(١) علامة الاحتقار (٢) الحداد

أَتَيْنِ اثْنَيْنِ بَيْنَ أَيْدٍ تَعْمَلُ فِي أَقْفَيْتِنَا وَسَيَاطِ تَقْدَحُ
فِي ظُهُورِنَا. فَمَا أَمْرُهَا مِنْ حَيَاةٍ. إِنْ أَيْدِي أَكَادَتْهُمْ الْقَدْرُ.
أَتَرَاهُ تَجَرَّدَ مِنَ الرُّوحَانِيَّةِ وَأَنْغَمَسَ فِي الْبَشَرِيَّةِ خَلَّ فِي هَيْكَلِ
شَرِيرٍ حَضَرَتْ فِي أَسْتِنْبَاطِ الْأَذَى قَرِيحَتُهُ وَأَقْفَرُ مِنَ
الرَّحْمَةِ فَوَادِهِ

ثُمَّ رَجَعَ إِلَى هَوَاجِسِهِ الْأُولَى وَوَقَفَ عِنْدَ تِلْكَ الْعَقْدَةِ
الَّتِي أَعْيَاهُ حُلُّهَا

أَيُقِيمُ هُنَا فَيَصْبِحُ شَيْطَانًا أَحْلَتْهُ الْجَنَّةُ أَمْ يَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ
فَيَصْبِحُ مَلَكًا أَحْلَاهُ السَّعِيرُ. فَتَأَوَّهُ وَقَالَ: رَبِّ كَيْفَ اخْتِلَاصُ
ثُمَّ اكْتَنَفَ نَفْسَهُ الْعَذَابُ وَشَاعَ فِيهِ الْأَلَمُ وَأَخَذَ
فِكْرَهُ بِخِتْلَاطٍ عَلَيْهِ، فَمَرَبَهُ مَا أَدْرِي أَيُّ صَنُوفِ الْبَلَاءِ وَلَعَلَّهُ
أَثَرٌ مِنْ آثَارِ مَوَاقِعِ الْيَأْسِ فِي النُّفُوسِ. وَذَكَرَ وَهُوَ فِيمَا
هُوَ فِيهِ كَلِمَةً (رُومَانُ فِيل) فَقَالَ تَرَى مَتَى سَمِعْتَ هَذِهِ
الْكَلِمَةَ؟

سَمِعْتُهَا مِنْذُ عَهْدٍ بَعِيدٍ فِي أَغْنِيَةٍ صَغِيرَةٍ تَقَعُ فِي بَيْتَيْنِ مِنَ
الشُّعْرِ وَإِنِّي لَا أَحْسِبُ (رُومَانُ فِيل) أَسْمًا لِغَابِ صَغِيرٍ

بضاحية من ضواحي باريس يؤمه العشاق من الشباب
في شهر أبريل ، يجنون زهرات الزنبق

وسرى اضطراب باطنه الى ظاهره فجعل يترنح
في مشيته كأنه وليد قد خرج من الحبو الى المشي ، فترك
يمشي وحده فهو لا يكاد يماسك . فجعل يكافح أشد الكفاح
ليثوب اليه رشده ويخرج من ذلك البله ، حتى إذا تمكن
من نفسه أو كاد ، أراد أن يعزم العزيمة الأخيرة . إما
الكشف عن نفسه وإما السكوت على حاله ، ولكنه لم
يرزق التمييز .

وطاحت هواجسه بثمرات فكره وأخذت تصورات
المهمة تضطرب أمامه ثم تحولت بالتعاقب إلى دخان تذهب
به الرياح ، فأحس أنه أنى وقف أو وقفته الضرورة فإن
بضعة منه هالكة لا محالة ، فعليه أن يشهد إما احتضار
سعادته وإما احتضار فضيلته وعاود التردد فعاد الى موقفه

الأول

هكذا كانت تضطرب هذه الروح المعذبة تحت
سيّال من الكرب والبلاء.

قبل نهد هذا البائس ثمان عشرة مائة من السنين ،
هناك عند تلك الزيتونة المباركة التي كانت تعبت بها هُوج^(١)
رياح الابد — وتحت ذلك الفلك الخالي بالكواكب —
كان ذلك السرّ الغامض الذي أعجز القول إدراك كُهمه —
ذلك الذي حل في صورة قد رُكبت من السكّال والهدى
ومن آلام هذا الورى — يعاف هو أيضا شرب السكّاس
المرهوبة التي طالما نحاها عنه بيده كلما خالها تفيض بكسفٍ
من ظلمات ، تسلسلت منها ظلال تجزع عند وزدها النفوس

(١) جمع هوجاء وهي الرياح الشديدة

ألو ان الالم فى النوم

أقبل السحر وهو لا يزال يمشى فى حجرته فأستشعر
التعب ، فلقد مرت به خمس ساعات على التعاقب لم يُنَفِّسْ
فيها عن نفسه فأرغى على مقعد . وما هو إلا أن احتواه
حتى غطّ فى النوم ، وسنحت له رؤيا شبيهة بتلك الرؤى
التي تُمثل للمهموم فى نومه ما كان عليه فى يقظته ، مغالية
فى تلوين وجوه الألم . ولقد نال منه هذا الحلم ما لم تنله
اليقظة فلم يكدر يفوق حتى خط يده ما كان مركزاً
فى نفسه من وحى ذلك الكابوس

وليس من الأمانة أن نمرّ به ولانذكره فيصبح تاريخ

الليلة وهو أتر — ونحن مثبتوه هنا لم نحرّم منه حرفاً

الرؤيا

رأيت كأننى فى قفر لا نبت فيه ، وكأن كنت بحيث

لا ليل ولا نهار ، وكأن أخى كان يماشيني فى ذلك القفر ،

ذلك الأخ الذي طويتُ معه عهدَ الحداثة ثم افترقنا وطال
الأمَد حتى نسيته

سرتنا وقد رمانا الطريقُ ببعض السابِلة ثم خضنا
في حديث جرٍّ الى ذكر جارة كانت لنا في ذلك العهد —
كانت تعمل أُمّام نافذة مفتوحة تُطلُّ على الطريق ، وكأنا
ونحن نتحدث في ذلك القفر نجد مَسَّ البرد المصبوب علينا
من تلك النافذة

وهفا بنا فارس في لون الرَّمَاد على فرس في لون التراب
عارى الجسد أصلع الرأس جميعه حتى إن الناظر الى جمجمته
ليكاد يعمُد فيها فروع أوداجه وييده مَخَصْرَةٌ في لدوة
فرع السكرم وفي ثَقَلِ عود الحديد — هفا بنا ولم يسلم

فقال لى أخى اعطف بنا على هذا الطريق الأجوف
وكان طريقا سماؤه في لون أرضه لا يرى السالك فيه أجمةً
ولا خضراء وإنى لأُحدِّثه وأنا لاهٍ عنه بما أنا فيه ، إذ به قد
راغ روغة وأختفى — ثم رُفِعَتْ لى قرية فيمَمَّها خَرَصَتْ^(١)

(١) أى تغلّبت خمنت حررت

عليها أنها قرية (روما ثقيل) فركبتُ أولَ طريقٍ لَقِينِي
 فاذا به قفر، عدلت عنه إلى ثَانٍ فلما بلغت الزاوية التي تربطه
 بأخيه إذا أنا برجل قائم عند حائط فسألته عن اسم القرية
 التي أحلَّتني فلم يُنعمْ بالجواب: وفتَحَ بابُ دارٍ ولجَ فيه
 ذلك الرجلُ فتعقبته فاذا أنا برجل قائم وراء الباب فسألته
 لمن البيتُ فأعرض عني ولم يُجب، وكان للدَّارِ بستان
 دَلَفْتُ إليه فاذا أنا برجل قائم تحت شجرة فسألته لِمَنِ
 البُستانُ فأعرض عني ولم يُجب. فهَمْتُ على وجهي في تلك
 القرية التي أقفرت من الإِنسِ سُبُلُها وفتُحَتِ أبوابُ دورِها
 فما رماني الطريقُ بأنسي ولا أحسست حركةً في دارٍ من
 تلك الدور — غير أنني كنت أرى عند كل جدار وخلف
 كل باب وتحت كل شجرة رجلاً قائماً قد أخذ نفسه
 بالسكوت

فانحدرتُ إلى المزارع فلم أكد أنقل فيها بعض الخطى
 حتى رأيتُ وقد نظرت خلفي زمرة تتعقبني، وإذا بكل
 أولئك الذين رأيتهم قياماً قد ترسموا أثرى ورأيت كأنهم

يمشون الهويناء ولكنهم على ترثهم كانوا أوسع مني خطي
وأخف حركة ، وما هي إلا لحظة حتى لحقوا بي وتكتمفوني
وكانوا جميعاً في لون التراب ، فسألني أحدكم وأحسبه أول
رجل لقيته عند هبوطي القرية

أين تمضي ويلاك — أو لست قد مت من عهد بعيد .
وبينا أنهياً للجواب إذا بهم قد اختفوا جميعاً
ثم هب من نومه وكأنه قطعة من الجليد وقد خمدت
نار المدفأة وذابت الشمعة الا قليلا ، وكان الليل لا يزال
ليلاً فقام إلى النافذة ونظر نظرة في السماء ، فإذا بها لا تزال
ضريبة النجم . وكانت النافذة تطل على فناء الدار والطريق
وبينا هو ينظر الى السماء اذا به قد سمع صوتاً جافياً
وضجة عنيفة على وجه الأرض ، خفض بصره فرأى نجمين
أحمرين يشعان أشعة تترامى في جوف ذلك الليل ، وكان
لا يزال في بقايا خباله — فقال دُفِعَت الليلة الى عجائب —
ترى أعافت النجوم سبحاتها فوقنا فهوت تسبح تحتنا —
ثم قامت ضجة ثانية كان من أثرها في نفسه ان عاد إلى

صوابه فنظر نظرة أخرى فاذا بالنجمين الأحمرين لم يكونا
غير مصباحي عجلة قد شُدَّ إليها جوادٌ أبيض فسأل نفسه
لِمَ مَرَّ مَا بَكَرَتْ هذه العجلة

وفوجئ بطرقٍ على الباب — فأزعجته هذه الفجاءة
وصاح بصوت خشن من الطارق . تلك أنا ياسيدى الشيخ
فعرِف صوت خادمه العجوز ، فقال وما تريدن : فقالت
إنها الساعة الخامسة ياسيدى . قال وما شأنى بذلك : قالت
لقد حضرت العجلة . قال أية عجلة قالت تلك التى تقدّم
سيدى تهيئتها فى هذه الساعة وها هو ذا السائق يطلب
لقاءك . قال ويحك أى سائق . قالت سائق السيد (سكوفير)
وما كادت تذكر هذا الأسم حتى احتوته رعدة وكان
برقا من الذكري قد خطف أمام عينيه . ثم سكت سكوتا
طويلا ولو رآته الخادم وهو على تلك الحال لتمشى قلبها
فى صدرها من هول ما ترى . وعالوده البلاء فجعل يلهو
وتعبث أنامله بتلك الشباك التى نسجتها الشمعة من دموعها .
وخطرت الخادم بتذكيره . فقالت سيدى الشيخ : كيف

أجيب السائق فقال لها قولى له إني سأوافيه الساعة



وكان البريد بين (آراس) و (منتراى سيرمير) يحمل
فى ذلك العهد على عجالات ذات ثرسين مطوقين بجلد أسمر .
وفى كل عجلة مقعدان . مقعد للسائق ومقعد للمسافر
ولم تكن تلك العجلات التى أنقرض اليوم نوعها على
شيء من الرثاء . . .

وقد كان أيسر عاب^(١) بها أنها حذباء
فاذا لاحت للناظر عند مطرح البصر وهى تزحف
تحت الأفق زحفا حسيب أنها من تلك الدواب التى دقت
خصورها وثقلت أعجازها

وكان البريد الذى يغادر (آراس) فى كل ليلة لا يبرحها
حتى يوافيها بريد (منتراى سيرمير)
وفى هذه الليلة نفسها كان البريد الهابط الى (منتراى

سورمير) من طريق (هيدسان) قد صدّم عند منعطف
الطريق عجلة صغيرة قد شدّ اليها جوادٌ أبيض وفيها إنسان
مدنّر ، فرجتها الصدمة رجّة أشفق معها حامل البريد على
ذلك الرجل فسأله الوقوف ، ولكن الرجل قد انطلق
في طريقه وهو يركض جوادَهُ ملء فروجه . فقال حامل
البريد . ويل له ، لقد أستطرد به الشيطان . ولم يكن الذي
مرّ يعدو غير صاحبنا الذي بات على حالٍ حقيقة بالرحمة .
فلو أنك سألته الى أين تمضي ؟ وما لك هكذا تسرع ؟
لأجاب . لا أدري

إنه خرج تحت مشيئة الاتفاق . فإما الى (آراس)
وإما الى غيرها . ومرت تهوى به العجلة في جوف الليل
وكأنها مدفوعة الى هاوية . وكان يشعر أنه قد بات نهبا
لقوتين متباينتين لا قبلَ له بهما ، هذه تدفعه وتلك تجذبه
ولا يعلم الا الله وحده ما كان يحول في مناحي نفسه . ومن

ذا الذي سَلِمَ من أن يضلّ ولو مرّةً واحدةً في ظلمات
مغاوير الغيب

فسار وما عزم عزمًا ولا وقف عند رأى رَضِيَهُ ولا
سكنت سريره لأمر أبرمه . فكان في أخرى هو أجسه
مِثْلَهُ في أولها ، مازال واقفًا حيث كان . ثم عاوده ما كان
يتمشى في نفسه حين ركب العجلة فقال مهما كانت العاقبة
فمن العجز ألا آخذ بالحيطه . وليس للمرء أن يقطع بوقوع
أمر من الأمور ، ولكن له أن يطرحه تحت نظر فكره
فيستبطنه بحثًا واستقراءً . ومن نصّب نفسه للحكم على
الأشياء وهو غير مكثّب^(١) فقد أخطأ مواقع الرأي وأطلع
من الذرّ جبالا ، ولعلّ إذا لقيت (چان ماتيوي) وجدت
الامرأيسرَ مما في نفسه ورأيتُه أهلا لما نزل به . أمّا (چافير)
فما كان ليكبّد لي وقد صرف الله غنى عنائه وصبّه على (چان
ماتيوي) فصوّب اليه الظنون والشبهات ، ونعوذ بالله من

(١) أي قريب

عنادها ، فإنها ما نزلت بصدر إلا تعصَى على صاحبه
أَنْزاعها

فلا خوف إذاً على من ذلك الداهية ، ولا أ كَذِبُ
نفسى فالساعة مرهوبة ، ولكنَّ باب الرجاء لا يزال مفتوحاً
ومصيرى لا يزال بحمد الله فى قبضة يدي أَصْرَفُهُ كيف أشاء
وأُشْتَدَّ به بعد ذلك القلق فكان يُؤَوِّرُ فى قرارة نفسه
أن يعود على أن يذهب

وكان كلما أُنْقَبِضَ صدره صبَّ سوطه على ذلك الجواد
الذى كان يُحْضِرُ^(١) إحضاراً يطوى فى الساعة فرسخين
ونصف فرسخ . وجعل كلما أُنْدَفَع فى طريقه نَمَتْ عنده
شهوة الرجوع

ولما تنفَّس الصبح أو كاد ، كان فى الفضاء وقد أختفت
مدينة (موتراى سير مير) فنظر إلى افق قد أبيضَّتْ ذُوَابُهُ
وبرزت صحيفة وجه فجر ولدته ليلة من ليالى الشتاء ،

(١) أى يجرى جرياً سريعاً

إِصْبَاحُهَا أَشْبَهَ الْأَشْيَاءَ بِإِمْسَائِهَا . لَا تَكَادُ تَرَى تَبَاشِيرُهُ ،
وَلَكِنْ أَخِيلَةَ ^(١) التَّلَالِ وَالْأَشْجَارِ قَدْ أَضَافَتْ إِلَى مَا كَانَ
فِي نَفْسِ هَذَا الْبَائِسِ مَا يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْ ضُرُوبِ الْحُزْنِ وَالْأُسَى ،
وَكَانَ كَلِمًا مَرَّ . بَدَارَ مِنْ تِلْكَ الدُّورِ الْمُنْعَزِلَةِ عَلَى الْقَمَرِ ^(٢)
الطَّرِيقِ . قَالَ فِي نَفْسِهِ مَا لِهَذِهِ الدَّارِ بُدٌّ مِنْ سَاكِنِهَا
مَلَأَ جَفْوَنَهُ

وَكَانَ خَلِيبُ الْجَوَادِ وَجَرَسُ جُلُجُلِهِ وَوَقَعَ الْعِجْلَةُ عَلَى
الْبَلَاطِ يُقَاعُ حَسَنًا وَنَعَمٌ مُتَمَاثِلٌ يَدْخُلُ الْإِنْسَ عَلَى نَفْسِ
الْخَلَى وَيَزِيدُ فِي أَسَى نَفْسِ الشَّجِيِّ

فَبَلَغَ قَرْيَةَ (هَيْدِسَانَ) وَقَدْ أَضْحَى ، فَوَقَفَ أَمَامَ نُزُلِ
رَجَاءٍ أَنْ يُنْفَسَ عَنِ الْجَوَادِ وَيَعْلِفَهُ . وَكَانَ جَوَادًا كَمَا قَالَ عَنْهُ
صَاحِبُهُ مِنْ أَصْلِ بُولُونِي . عَظِيمُ السَّيْلِيلِ ^(٣) سَحِيرًا ^(٤) أَدَكُ ^(٥)
أَتْنَعُ ^(٦) مَفْتُوحُ اللَّبَانِ . دَقِيقُ عَظْمِ السَّاقِ . صُلْبُ الْحَافِرِ .
فَهُوَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَصِيلًا كَانَ عُصْلِيًّا ^(٧) مُتَيْنًا . فَعَلَّ فَعَلَ

(١) جمع خيال (٢) جواب (٣) أى كبير الرأس (٤) كبير البطن (٥) عربش الكفل
(٦) قصير العنق (٧) أى قوى الأعصاب

كرام الخيل فطوى خمسة فراسخ في مدى ساعتين وما
نَضَحَ كِفْلُهُ بَمَاءٍ وَلَا رَمَتْ أَعْطَافُهُ بِحَمِيمٍ

وكان لا يزال مشدودا الى العجلة حين حضر غلام
النزل يحمل اليه العلف وحانت منه التفاتة الى العجلة
اليسرى فصاح بالرجل، أَوَأَنْتَ عَلَى سَفَرٍ بَعِيدٍ . قَالَ
مَالِكٌ وَهَذَا . قَالَ هَلْ قَطَعْتَ شُقَّةً طَوِيلَةً . قَالَ خَمْسَةٌ
فِرَاسِخَ . فَأُجَابَ الْغُلَامُ وَهُوَ يُدْمِنُ النَّظَرَ إِلَى الْعَجَلَةِ ، لَئِنْ
كَانَتْ قَدْ قَطَعَتْ بِكَ خَمْسَةَ فِرَاسِخَ ، لَمَنْ الْمَحَالُ أَنْ تَقْطَعَ
بِكَ رُبْعَ فِرَاسِخٍ آخَرَ ، انْظُرْ إِلَى مَا حَلَّ بِهَا مِنَ الْعَطَبِ .
فَوَثَبَ الرَّجُلُ وَنَظَرَ حَيْثُ يَنْظُرُ الْغُلَامُ . فَقَالَ الْغُلَامُ وَهُوَ
يُحَاوِرُهُ أَوَّلَى ^(١) لَكَ فَمَا كَانَ أَنْ خَلَقَهَا أَنْ تَطْرَحَكَ وَجِوَادُكَ
فِي حَفْرَةٍ مِنْ حَفْرِ الطَّرِيقِ . ثُمَّ أَشَارَ إِلَى مَكَانِ الْعَطَبِ فَذَا
الْعَجَلَةُ الْيُسْرَى قَدْ اخْتَرَمَهَا الْبَرِيدُ حِينَ صَدَمَهَا فِي (مَنْتَرَايَ
سِيرْمِيرَ) فَقَصَفَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِهَا وَكَادَ مُحُورُهَا يُفْلِتُ

(١) نجوت وما كدت تنجو هكذا شرحنا المرحوم الشيخ محمد محمود الشنقيطي
وهو من امضغ العرب للشيخ والقيصوم

المُحَوَّى^(١) فقال الرجلُ ابْغِنِي نِجَارًا لَهُ خَصِيصَةٌ بهذا العمل . فقال إنه على خطوتين منّا . وكان النجار على عتبة داره ، فجاء به فجعل ينظر الى العجلة وقد انقبضت أساور وجهه كأنه مطبَّب ينظر الى ساقٍ مَهْشَمَةٍ . فقال الرجل أتعالج إصلاحها في الحال . قال نعم — قال ومتى اسافر . قال غدا ، فأجاب الرجل غداً وقد ملكه الدَّهْشُ . فقال النجار إن إصلاحها يستوفي عمرَ النهار كله . فهل أنت من أمرك على عجل . قال ما أحوَجَنِي الساعة الى السفر . قال وَدِدْتُ لو تهيا لك ذلك . قال أصلحها ولك حكمك^(٢) قال لمتنى أستطيع ذلك فأفوز بوعدك . قال إني مسوق الى السفر فإذا أعياك إصلاحها فابغيني غيرها . ثم قال أهنا مركبة للسكراء . قال عندي مركبة يقبضني عن إكراؤها ما أراه بعجلتك من العطب ويلوح لي أنك غير حريص على مال غيرك . قال . بَعْنِيهَا . قال أما البيع فلا . قال إني نَدِيَّ الكفِّ وإن أشتطَّ البائع . قال

(١) المحوي السمار القلاوط (٢) أي ما تشاء من الأجر

تحت يدي عجلة لأحد الفلاحين يستخدمها في السادس^(١)
والثلاثين من كل شهر فان شئت اكرتيتها على شريطة ألا
يراك ربها وانت منطلق بها ، ولكنها عجلة عاتية لا يستقل
بها جواد واحد ، ومن لك الساعة برأسين من الجياد ؟ قال
من مرابط خيل البريد . قال الرجل وما وجهك^(٢) قال مدينة
(آراس) قال أوحتم من الحتم أن تبلغها اليوم . قال نعم .
قال ألا يستوى عندك أن تبلغها في فجر هذه الليلة . قال
لا . قال هل تحمل جوازا للسفر ؟ قال نعم . قال إنك اذا
تهيا لك أن تحصل على جوادين من مرابط خيل البريد فما
أنت ببالغ (آراس) قبل الغد ، فإن خيول البريد في هذه
المراحل منشورة في المزارع ونحن في إبان الحرث وهم
يجمعون له الخيل أني أصابوها . فاذا لجأ سيدي إلى ذلك
كان عليه أن يلبث نصف يوم عند كل مرحلة ، دع ما يعرض
له من العقبات . قال أسرج جوادى هذا من عجلتي وأمتطيه

(١) مثل يضرب عندهم للمستحيل كقولنا عند قيام الساعة يريد أنه لا يستخدمها
مطلقا (٢) الوجه القصد ، الجهة السيل

فابغني سرجاً . قال وهل يصبر جوادك على صحبة السرج ؟
 قال لقد ذكرتني ناسياً إنه لا يصبر على صحبته . قال هل
 من سبيل إلى جوادنبيل يبلغ بي (آراس) من غير تنفيس ^(١)
 قال إنك لن تظفر به وهبك وجدته فإن ربه ليضن به ولو
 ملأت يديه ذهباً

فشاع السرور في نفسه وقال . إن للعناية أيداً فيما أرى
 أو ليست هي التي أتلفت العجالة وقطعت على السبيل .
 وقد أنذرتني فلم يلوني إنذارها عن القصد والتمست المخرج
 مما أنا فيه ، فاثنتاني برؤي ولا قعد بي نصب ولا أرهقتني
 نفقة فأصبحت وقد عداني اللوم ، فاذا أستحال على
 المضى في طريق فتلك مشيئة القدر . ثم تنفس ملء رئيته
 تنفس الحر الطليق وخيل إليه أن السهم الذي ضل نصلة
 في فؤاده قد أنزعه منه نازعاً ، فوجد لذلك روحاً لم يجده
 منذ رأى وجه (چافير)

(١) أي في مشوار واحد كما تقول العامة

وقال لقد علم الله أنى صنعت ما يكاد يخرج عن الطوق
فأخطأنى التوفيقُ ، فلا أملك من أمرى بعد هذا كله
إلا الرجوع على هاتين النعائين

ولو كان حديثه مع النجار فى خلوة لما وصل إلى أذن
حى وللبث مكتوماً ، ولكنه كان على الطريق المعبد . ومن
شأن مثله أن يلفت المارّ الذى يستهويه حبُّ الاستطلاع
فيفق ناشراً أذنيه لتسقط الخبر ، فلا يكاد يحدثُ يمر
فى حديثه حتى يرى حوله حلقة من الناس ، وما منهم إلا من
هو فارغ لذلك . وكذلك وقع (إچان فالچان) فبينما هو يحاور
النجار وإذا بطائفة من السابلة قد التفت حوله وكان بينهم
غلام لا تكاد تأخذه العين ، قد تسلل من الجماعة وطفق
يعذو حتى اختفى وما كاد يهْم (چان فالچان) بالرجوع
حتى عاد الغلام يصطحب امرأة عجوزاً

قالت العجوز إن غلامى هذا نقل إلى أنك فى حاجة
إلى مركبة . وما كادت ترى بتلك الكلمة حتى ندى بالعرق

جبينه وشعر كأن اليد التي سرحته منذ قريب توشك أن
تقبض عليه من جديد . فابث غير بعيد ثم أجاب نعم
أيُّها المرأة الصالحة فأنا في حاجة إلى مركبة أكثر بها ولكنهم
يزعمون أنني أحاول المحال . قالت لقد وجدتَها . قال أين ؟
قالت عندي . فأحتوته قشعريرة وقال في نفسه كان الذي
خِفْتُ أن يكون . وكانت مركبة عتيقة من الخيزران
قد علاها الوحل وأكلها الصدأ وفعل فيها الجوُّ فعله . ولم
تكن بأحسن حالاً من مركبته المعطوبة . ولكنها لم تأب
على ما فيها أن تَقْلَهُ إلى (آراس) فلم يجد عنها مَزْجَلاً ،
فأكثرها على حكم ربِّها وشدَّ إليها جواده وأطلق
في سبيله . وبينما كانت العجلة تجري به كان يجري في نفسه
حديث غريب ، لقد أَحْسَسْتُ منذ مُنْهِنَةٍ سروراً
بعثته تلك الحوائل التي قامت بيني وبين المُنْصَى في طريق
وأرى الساعة أنه سرور كاذب . الويل لي . أيسرُّني إلا حجام
عن مقصداً أنا الذي وجه نفسه إليه مختاراً والقعود عن سفر

أنا الذى حمل نفسه عليه مسوقا بإرادته
 ولم يكده يعضى فى طريقه حتى سمع صوتا يهيبُ به أن
 قِفْ ، فأوقف العربى أرتجالا وقد عرته هزّة المحموم المختلج
 ولعلها إحدى هزّات الأمل . وإذا بـغلام العجوز يناديه .
 أنا ذلك الذى هيا لك الحصول على العجلة . قال وما تريد .
 قال أجرى على ذلك . قال وقد فارقتك تلك الأرنجحة التى
 طالما كانت تهزه الى إسداء الجليل . أغرب ولا كرامة .
 ثم ساط الجواد فأطلق يعدو وأراد أن يعوض ما أضاعه
 من الزمن فى (هيدسان) فخط على جواده بالسوط ، فلقى عناء
 من الجرّ وكان قد خرج به غيب^(١) سماء فكابد من الوحل
 وثقل المركبة ما كاد يأتى على قواه فلم يطو غير خمسة
 فراسخ فى مدى ساعات أربع حتى بلغ (سانت بول) وهناك
 نفس عنه فى نزله وقاده الى الإسطنبول ووقف يعلفه .
 وأقبلت ربة المنزل فقالت ألا يأكل سيدى . فقال: ما أحوجنى

الى الطعام ، وتبعها وكانت امرأة صبوحة الوجه فارحة
الجسم ، وأقبلت خادم فتيات له الخوان وهو يسارقها النظر
وقد وجد لها في نفسه محلا فأهوى الى الخبز فمضغ منه لقمة
واحدة وكف يده . وكان على المسائدة التي يجواره سائق
عجلة يأكل . فقال له مال هذا الخبز مُرّاً ؟ وكان ألمانيا فلم
يفقه قوله ولم يجبه . وانكفا بعد ذلك الى الاصطبل يراقب
الجواد ، فلما فرغ من علفه شدة وانطلق به الى مدينة (تنك)
وكانت على خمسة فراسخ من (آراس)

فسار وقد غرق في هواجسه وجعل يتأمل وجوه
الشجر وسطوح الأكواخ ومناظر اخلاء التي كانت تلوح
له كأنها قد وقعت في غشية أو سُبات

وإن لوجوه الأرض لتسلية تُرفه عن النفس
وتصرفها عن التفكير ، واسكنه قد مرّ بألف وجه منها
وما زال كاسف البال وفاته قولهم ، من سافر فقد تجدد ،
وما يدريك لعله كان يقارن في نفسه بين قلب الأجواء
وذلك الوجود البشري الذي لا يستقر فيه شيء على حال

فكل ما فيه قد جُبِلَ على الفرار منا . أَلَمْ تَرَ إِلَى اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
 كَيْفَ يَتَعَاقَبَانِ ، وَإِلَى الشُّرُوقِ وَالْغُرُوبِ كَيْفَ يَتَنَاقَبَانِ .
 وَالْمَرْءُ يَرَى مَا يَمُرُّ بِهِ فَيُسْرِعُ بِاسْطِغَاثِ يَدَيْهِ لِيَمْسِكَ فَيُفْلِتَهُ ،
 وَكُلُّ حَادِثٍ يَنْتَابُنَا أَنَّمَا هُوَ آيَةٌ فِي طَرِيقِنَا لَا تَلْبِثُ أَنْ
 تُسَلِّمَنَا إِلَى الْيَكْبَرِ ، وَكَلَّمَا أَحْسَسْنَا تِلْكَ الْهَزَاتِ الْخَفِيَّةَ
 وَقَفْنَا نَبْهَ النَّظَرِ عَلَى بَابِ الْغَدِ وَمَا وَرَاءَهُ غَيْرِ الْغَامِضِ مِنَ
 الْغَيْبِ ، دَخَّ جَوَادَ الْحَيَاةِ الَّذِي يَسْتَطِرِدُ بِنَا زَمَانًا ثُمَّ يَقِفُ
 عَلَى غُرَّةٍ مِنْ رَاكِبِهِ ، فَيَأْتِي مِنْ جَوْفِ الْغَيْبِ مَنْ يُرَجِّلُهُ
 عَنْهُ ثُمَّ يُسَرِّحُهُ

وطلَعَ وَالشَّفَقَ عَلَى مَدِينَةِ (تَنَك) فِي آن ، وَكَانَ النَّهَارُ
 قَصِيرًا فَأَنْطَلَقَ حَتَّى إِذَا مَرَّ بِرِصَافٍ يَرْصُفُ الْحِجَارَةَ ، قَالَ
 الرِّصَافُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى جَوَادِهِ ، أَرَى جَوَادًا مَكْدُودًا ثُمَّ
 نَظَرَ إِلَى الرَّجُلِ وَقَالَ لَعَلَّكَ تَرِيدُ (أُرَاس) قَالَ نَعَمْ ، قَالَ :
 إِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَهَا عَلَى هَذَا الْجَوَادِ ، قَالَ كَمْ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ، قَالَ سَبْعَةٌ
 فَرَسَخٌ ، قَالَ إِنْ دَلِيلَ الْبَرِيدِ لَا يَقُولُ بِقَوْلِكَ ، قَالَ إِنَّهُمْ

يُصلحون الطريق على مقربة منا فلا يتسنى لك المضي فيه
وما أخلقك بالعروج على طريق آخر ، فعليك أن تتيسر
ثم تركب طريقَ (جارس) ثم تعبر النهر هناك فإذا بلغت
(كامبلان) فتيا من وأركب المحجة الى (أراس)

قال أخشى الضلال في هذا الليل البهيم ، قال : أولست
من أهل هذا البلد ، قال إني غريب ؟ قال عُدْ إلى (تنك)
وأقض الليلة في نزها واستبدل بهذا الجواد الذي نزع التعب
قواه جوادا يُقَلِّك إلى (أراس) قال استحال غير السفر
في هذه الليلة ، قال استأجر جوادا ودليلا فعمل بمناصحته
وقفل إلى (تنك) وعاد يعدو بجواد جديد يصحبه غلام
من النزل

وغاب في أحشاء ليل قد كسر على الأرض جناحيه
وكان الطريق وعراً والعجلة تجلجل^(١) فوق نكت^(٢) الأرض
وهو فوقها مقلقل الشخص يهيب بالغلام إيه إيه ولك ضعيف

(١) أي تتحرك مضطربة (٢) الحفر الصغيرة التي تنشأ عن وقع العصا أو العقب

الأجر . فصاح الغلام لقد عُطِبَ العريش ، فكيف نمضي
ونحن بين طريق وعري وليلٍ خَلِيقٍ أَنْ تصدّتا محارمهُ ^(١)
عن السّرى ، فهل لك أن تعود إلى (تنك) وأنا الضمين أن
تبلغ (أراس) عند مُنبَلَجِ الصّباح . فقال أَمَعَكَ حبل
وسكين قال نعم ، فأهوى الى شجرة فأقْتَضَبَ منها فرعاً
أقامه مقام العريش وأطلق في سبيله

وكان الوادي في ظلام دامس والضباب ^(٢) (دَانٍ مُسِفٍّ)
فَوَيْقَ الأرض هَيْدَبُهُ) ينبعث من التلال كأنه كِسْفٌ من
الدخان وقد شاع في سواد السحب بياض وهبت ريح البحر
في جوانب الافق فكان لهبوبها أَشْبَهُهُ الأصوات بصوت
الأنثاء عَبَثَ به عابث

فَتَمَخَّخَ البردُ عِظَامَهُ وكان طاوياً منذ العشيّة فذكره
القرُّ والطوى تلك الليلة التي قضّاها منذ سنين ثمانٍ

(١) أى مخافه (٢) مأخوذة من قول الشاعر .

دان مسف فويق الارض هيدبه * يكاد يدفعه من قام بالراح

يصف سحاباً قريباً من الارض

في ضواحي مدينة (ديني) وقد ذكرها كأنه يذكر أمس
الداير

وسرى الى سمعه جرس ساعة على بعد فقال للغلام
ما هذه الساعة فقال إنها الساعة السابعة وسنبليغ (أراس)
في الثامنة ، فليس بيننا وبينها غير فراسخ ثلاثة
ونزلت برأسه فكرة لم يسبق لها في النزول فقال
ويل لي ما أضيع ما جشمت نفسي في يومى هذا من التعب
أما كان الأخلق بي أن أعلم علم تلك القضية وموعد
النظر فيها . ثم قدر في نفسه تقديراً لذلك الموعد وقال إن
الجلسات لا تعقد قبل الضحى ، والنظر في هذه القضية
لا يفتقر الى الكثير من الزمن ، إن هو إلا سؤال وجواب
فشهادة أو شهادتان ، فكلمة للمدافع ، فحكم لا يتعدى
التغريم ، ولعلّى أبلغ الجلسة قبل الفوات . كل ذلك والغلام
يسوط الجواد فعبر النهر وجاز مدينة (مونت سان ألواي)
وقد سطت غياهب الظلام

(وَلَمَّعْتُ بِالْقَارِئِ إِلَى « فَاتِتِينَ ») فِي الْوَقْتِ الَّذِي
تَجْرَى فِيهِ هَذِهِ الْحَوَادِثُ كَانَتْ (فَاتِتِينَ) رَضِيَّةَ الْبَالِ
وَكَانَتْ قَدْ طَوَتْ لَيْلَةً مَذْكُورَةً ، كَابَدَتْ فِيهَا مِنَ الْحُمَى
وَمَزَعَجَاتِ الْأَحْلَامِ مَا يَهْدُ الْحَيْلَ

وَلَمَّا أَصْبَحَتْ كَانَتْ لَا تَزَالُ تَهْدِي ، وَعَادَهَا الطَّيِّبُ
فَوَجَدَهَا فِي فَوْرَةٍ مِنَ النَّفْسِ فَطَلَبَتْ إِلَيْهِ أَنْ يُنْذِرَهَا
عِنْدَ قُدُومِ (مَادِلِينَ)

وَلَبِثْتُ فِي تِلْكَ الضَّحْوَةِ كَأَسْفَةِ الْبَالِ لَا تَكَادُ تَفْتَحُ
فَاهَا وَجَعَلَتْ تَلْهُو بِطَيِّ غَطَائِهَا طَيَاتٍ مَقْدَرَةً ، وَتَحْرَكُ
شَفَتَيْهَا كَأَنَّهَا تَذَرَعُ^(١) بِفِكَرِهَا مَسَافَةً مِنَ الْمَسَافَاتِ ،
وَقَدْ غَارَتْ عَيْنَاهَا وَجَدَّ بَصَرُهَا ، وَأَنْطَفَأَ ضِيَاؤُهُ أَوْ كَادَ ،
وَكَانَتْ تَفْتَحُ بَيْنَ الْفَيْنَةِ وَالْفَيْنَةِ عَيْنَيْهَا عَنْ مِثْلِ لَمْعَةِ
الْكُوكَبِ ، وَلَا عَجَبٌ فَإِذَا دَنَتْ سَاعَةُ الشَّدَةِ فَإِنْ مَدَدًا
مِنَ السَّمَاءِ يَمَلَأُ نَفُوسَ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ فَقَدُوا مَدَدَ الْأَرْضِ

(١) تَقْيِسُ بِالذَّرَاعِ

وكما سألتها الراهبة كيف أنتِ قالت : أَحْمَدُ اللهَ ولا
أطلب إلا رُؤية (مادلين)

منذ بضعة أشهر وفي ذلك الحين الذي أبتذلت فيه
(فانتين) خدرها فتمزقت عفتها ، وغاض حياؤها ، كنت
ترى (فانتين) وكأنها ظلٌّ (لفانتين) أمّا اليوم وقد فنى
جسمها فقد كنت ترى (فانتين) وكأنها طيف (لفانتين)
(والظل للجسم والطيف للروح) ولقد كان لتشويه خلقها
أثر في تشويه خلقها فانظر الى تلك المرئية التي لم تشهد غير
خمسة وعشرين ربيعا ، كيف هبط أكثر لحمها فتجمعت جبينها
ورَهَل^(١) خدّها ، وشحّب لونها ، وبرز منكباها ، وتجرّدت
عظام نحرها ، وانبرت أعضاؤها ، وأصبح جلدّها وكأنما
طلاه بالطين طال . ونبت شعرها الأشقر وقد نصل لونه
وجالت فيه طلائع المشيب ، فافٍّ من المرض فانه يرتجل
الشيخوخة وإنه لا يُجب مطايا الكبير

وعند الظهر عادها الطبيب فسأل عن (مادلين) ولما

(١) أى استرخى اللحم

علم بغيابه حرّك رأسه حركة أعربت عن الأسف
وكان (مادلين) يأتي في عصر كل يوم وما تخلف مرّة
عن ذلك الموعد . والوفاء من شمائل الطيّبة ، وقد كان
الرجل طيّباً

وعاودتها عند العصر فورة النفس فسألت عن ساعة
زمانها عشر مرات في مدى عشرين دقيقة ثم استوت فجأة
في سريرها ، تلك التي كانت لا تنبعث لها جراحة من
المرض والهزال

ثم شبكت ذراعين قد انحلهما السقم وأرسلت من
صدرها تنهداً خيّل معه الى الراهبة أنها رفعت به عن صدرها
ثِقَلًا ، ورمت الباب بنظرة من برقب قدوم إنسان . ولكن
الباب لم يَرْمِها بأحد فلبثت برهة وهي تنظر اليه ، وكأنها
معلقة الأنفاس والراهبة لا تجرؤ على سؤالها . ثم ألقت
برأسها على الوسادة ومرت الساعة تلو الساعة ولم يزلها زائر
وما رآها على تلك الحال راء إلا علم بما يجول في فكرها

ولكنها صابرت آلامها فلم تشك ولم تتوجع
وسمعتها الراهبة قبيل الغروب وهي تقول بصوت
خافت . إني هامة اليوم أو الغد فما كان أخلقه اليوم بزورة
الوداع . ثم طفقت تغنى ، وكأن صوتها نفحة من نفحات
النسيم ، أغنية عتيقة تدعى بأغنية الأرزجوحة ، كانت تنغم
بها (فانتين) لإنعاس طفلتها في عهدهما الأول وقد كان
صوتها يقطر حزناً وإيقاعها مشجياً لا يملك السامع معه
الدموع من أن تسيل ، فبكت حتى تلك الراهبة التي
درجت على الزهد والتششف

ولما أعتمت علت وجهها آيات الدهول وأرسلت
الراهبة صبية تسأل عن (ماداين) فعادت على الأثر
وأسرت لها أن (ماداين) قد سافر وحيداً في فجر هذا اليوم
ولا يدرى خلق بالوجه الذى يريده

وقد رآه قوم على طريق (أراس) وزعم قوم أنه قد
ركب طريق (باريس) وكان هو هو ، لم يامحوا على ظاهره

مايتم على باطنه . وبيناهما يتسارَّان على مقربة من سريرها
وقد أستدبرناه وإذا (بفانتين) وكأنَّ نافضاً من الحمى
تمازجه حركة المعافى في بدنه قد حرَّكها في سريرها

فهبت رغم ذلك الهزال المروع هزال الموت وجشت
على ركبتيها واعتمدت على الوسادة بمرْفَقَيْهَا وأزْهَفَتْ
للسمع أذنيها وفرجت برأسها ما بين سِجْفَيْنِ كَلَّتْهَا^(١)
وصاحت بهما إنكما تخوضان في حديث وإن (لمداين) فيه
إشأنا . ونادتهما بصوت تخالطه البحة والخشونة كان من
أثره في نفسيهما أن ظننا أن المتكلم رجل من الرجال ،
فالتفتا مذعورتين فقالت لهما مالكما لاتنطقان . فقالت الصبية
بصوت خافت إن البوابة تقول إنه لا يعود الليلة . وقالت
الراهبة على أثرها إهدئي أنت ونامي . فأجابتهما بصوت
فيه رنة من الجلال ونبرة من الأسى ، إنه لا يعود ، أراكما
تتسارَّان في شئ ، تحاولان كتماننا عنى ولا بد لي من الوقوف
عليه فألقت الصبية في أذن الراهبة كلماتٍ فأحمرَّ وجه

الراهبة وهالها أن تكذب ثم ترددت بعض الشيء ، وقالت
 في نفسها إن أنا صدقتها في مثل هذا الموطن فقد قتلها
 وإن أنا كذبتها فقد قتلت كرامتي . ثم لبثت غير بعيد .
 وقالت (لفاتين) بصوت المتمكن من نفسه إن (مدلين)
 قد سافر منذ اليوم

فأستوت المريضة في سريرها وسرت بنفسها عقبة
 من السرور ومرّت بعينها خطفة من بارقة الأمل وصاحت
 إنه سافر ليري (كوزيت) ثم ضمت يديها وأستقبلت السماء
 بوجهها وأخذت تصلى . ولما فرغت من صلاتها قالت للراهبة
 الآن حلا لي النوم إمضاء لأمرِك فلا تنزلي أمرى علي
 الجُرأة عليك إذا رفعت صوتي في الحديث ، ففأنتي أن
 ذلك كان خروجاً عن أفق الأدب وإنما استخفى السرور .
 ثم أخذت مضجعتها بعد أن لثمت صليبها وقالت لها الراهبة
 إهدئي ونامى فضمت يديها الناديتين على يدي الراهبة التي
 هالها وفر العرق الناصع من جسم المريضة

وَأَنْشَأَتْ (فانتين) تقول : سافر إلى باريس وما كان
أَغْنَاهُ عَنْ ذَلِكَ وَ (مونت فورمي) عَلَى يَسَارِ ذَلِكَ الطَّرِيقِ
خَلَعْلَهُ يَتَحَرَّيْ مَفَاجَأَتِي بِذَلِكَ النَّبَأِ السَّارِّ ، فَقَدْ قَالَ لِي
يَا أُمْسُ حِينَ جَرَّ الْحَدِيثَ إِلَى ذِكْرِ (كوزيت) إِنِّي
سَأَرَاهَا قَرِيبًا وَأَخَذْتُوَقِيعِي عَلَى كِتَابٍ إِلَى أَصْحَابِ النِّزْلِ
وَلَا أَحْسِبُهُمْ إِلَّا فَاعِلِينَ وَمَا كَانُوا لِيَجْبِسُوا عَنِّي (كوزيت)
وَقَدْ وَفُّوا أَجُورَهُمْ خَفَضْتُهَا عَنِّي افْتِيَاتٌ عَلَى أُولَى الْأَمْرِ ،
فَلَا تُؤَمِّئِي إِلَى السَّكُوتِ فَأَنَا السَّاعَةُ فِي عَافِيَةٍ لَا عَهْدَ لِي
بِمِثْلِهَا وَسَعَادَةٍ لِاحِدٍ لَهَا أَوَّلْتُ خَلِيقَةً بَعْدَ أَعْوَامِ خَمْسَةٍ
أَنْ أَرَى وَجْهَ طِفْلَتِي وَلَا أَحْسِبُهَا وَقَدْ بَلَغَتْ السَّابِعَةَ الْاَصْبِيَةَ
حَسَنَاءَ وَلَقَدْ صَبَرْتُ عَلَى بَعْدِهَا طَوَالَ السَّنِينَ ، وَلِلصَّبْرِ حَدٌّ
وَلَوْ أَنَّ لِي عُمُرَ الْأَبَدِ لَهَانَ ذَلِكَ الْبَعَادَ

فَمَا أَطْيَبَ عُنْصُرَ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي غَامَرَ بِنَفْسِهِ
فِي ذَلِكَ الْبَرْدِ الْقَارِسِ لِإِنْقَازِ طِفْلَتِي وَلَعَلَّهُ يَعُودُ فِي الْغَدِ مِنْ
(مونت فورمي) وَهِيَ بِلَدَةٌ قَدْ قَطَعْتُ طَرِيقَهَا عَلَى قَدَمِي

منذ عهد طويل فكان بعيد الشقة على وإن كان يسيراً على
 العجلان ، فيا ترى كم بيننا وبينها . فأجابت الراهبة التي
 لا علم لها بتلك الشقة أنه سيمودباً ذن الله في الغد . فقالت
 سأرى بُنيَّتِي في الغد إن الأمل ببقائها قد ألبسني ثوب
 العافية فلست مريضةً كما تزعمون ولكني مفتونة ، فلو
 أني دُعيت الساعة الى الرقص لأبدعت فيه . وكانت في
 هذه الآونة وردية اللون قد ابتسمت قسماً وجهها فكانت
 ترى ذلك الوجه وكأنه قد جمع من البسّمات وما أشبه سُرُور
 الأمهات بسرور الأطفال

ثم ألقَتْ برأسها على الوسادة وجعلت تدور بعينها
 في أرجاء الحجرة وقد بدت عليها سيما الارتفاع فأطبقت
 الراهبة الستائر على كلمتها رجاء أن يأخذها النعاس . وعاد
 عند العتمة الطبيب فلم يُحسَّ حركة في المكان فعزاً ذلك
 الى نوم المريضة خافت^(١) من مشيِّته ودنا من سريرها

(١) أي مشى على أطراف أصابعه

وأزاح الستار فرأى عَلَى ضوء الساهرة^(١) وجهها هادئاً
وعينين لم يُرْتَقِهُمَا النوم فابتدَرَتْه قائلة : إِيْنِهِمْ سَيُنْجِيْهُمُونَهَا
هنا بجانبى عَلَى سرير صغير . فعجب الطبيب من أمرها
وظنها سَهْدِي فانتحى بالراهبة ناحية فنفضت اليه جملة
الأمر . ثم عاد إِلَى سرير المريضة . فقالت : إِذَا تَيْقَظْتُ
بُنَيْتِي أَلْقِيْتُ عَلَيْهَا تَحِيَّةَ الصَّبَاحِ وَإِذَا نَامَتْ صَنَعْتُ بِي تَنْفُسَهَا
الهادِي مَالاً يَصْنَعُهُ الدَّوَاءُ ، فَأَتَجَّهُ إِلَى الْعَافِيَةِ . فقال لها
الطبيب : يَدَاكَ قَدَتْ يَدَاهَا وَهِيَ تَبْتَسِمُ وَتَقُولُ : أَلَا تَرَى
أَنِّي نَجَوْتُ ، فَدُهُشَ الطَّبِيبُ حِينَ جَسَ نَبْضُهَا وَرَأَى الْحَيَاةَ
تَجْرِي فِيهِ جَرِيَانًا . فقال إِنَّهُ مِنْ صَنَعِ السَّرُورِ الَّذِي أَدْخَلَهُ
عَلَى نَفْسِهَا الْأَمْلُ بِلِقَاءِ بَنِيَّتِهَا ثُمَّ أَوْصَى بِالسَّكُوتِ وَأَمَرَ
بِدَوَاءٍ يُلَطِّفُ مِنْ حِدَّةِ الْحُمَّى إِذَا هِيَ عَاوَدَتْهَا فِي لَيْلِهَا وَقَالَ
لِلرَّاهِبَةِ عِنْدَ أَنْصَرَفِهِ إِذَا أَسْمَدَهَا الطَّالِعُ بِرَجُوعِ (مَادَلِينَ)
فِي الْغَدِ فَقَدْ نَجَتْ

وَكَاثُنُ مِنَ سُرُورِ مَسِيحٍ مِنْ مَرَضٍ ، وَإِنَّهُ لَسِرٌّ مِنْ

(١) الساهرة وجعها سواهر كلمة قد وضعناها مكان القراءة عند العامة

الأسرار التي سيكشفها العلم في مستقبل الزمان
ولما كانت العتمة ، وقف المسافر الذي تعقبناه على باب
النزل (بآراس) وسرّح الجواد الذي استأجره وقاد بنفسه
الجواد الأبيض الصغير الى الإصطبل ثم عاد الى النزل
وجلس في إحدى قاعاته وأرتفق^(١) على منضدة وكان قد
استوفى عمر يوم وليلة في سفر كان يُقدّر له نصف يوم ،
وما كان ذلك من صنعه ولكنه صنع القدر
ولو أنك قرأت ما في نفسه لتجلى لك فيها آيات
الرضى . ودخلت عليه في هذه الاثناء ربة النزل وقالت
أيرغب سيدى في العشاء والنوم ؟ فأوما لها برأسه إيماءة
الرفض ، ودخل على أثرها غلام الإصطبل وقال إن جوادك
مكدود ، فأبتدره قائلاً أو ليس في طوقه السفر غدا ، قال
إنه لا يستطيع الحركة قبل يومين ، قال أين مكتب البريد
فقيده اليه فأخرج جواز السفر وطلب العودة الى (مونتراى
سيرمير) في نفس البريد الذي قدم معه وكان المقعد المجاور

لمقعد السائق لا يزال خالياً فاجيب الى طلبه ودفع النفقة
وا نذر بالسفر قبيل السحر

ثم غادر النزل وجعل يمشى في المدينة ويتنقل في طرقاتها
على غير هدى وكَبُرَ عليه أن يسأل المارة ، فعبر النهر
وخلص الى زقاق ضيق فضل السبيل ومر به فلاح يحمل
فانوساً^(١) فبدا له أن يسأله عن الطريق ثم نظر الى الخلف
والأمام كراهة أن يسمعه إنسان ، ولما أُرْمِنَ ذلك سأله أين
دار المحكمة ؟ وكان الرجل من ذوى الأُسنان . فقال له
يلوح لى أنك غريب فاتبعنى فان طريقى عليها . فأنطلقا حتى
إذا كانا على كشب من الغرض أنشأ الفلاح يحدّثه : إن
كنت رب قضية فقد جئت بعد الفوت ، على أنى لا أزال
أرى ضوّاً بنوافذ قاعة الجلسة ولعلها لم ترفع ، فان كنت
شاهداً فقد جئت فى الوقت . قال إنما جئت لأستشارة
محام فقال الفلاح هاك الباب فاذا دخلت فأرق الدّرج
فضى الرجل على إرشاد صاحبه فاذا هو فى قاعة فسيحة

(١) الفانوس فى الأصل النّام وقد استعمل للشمع لانه يتم عليه

قد غصت بالناس وطائِف من المحامين هنّا وئَمَّ يَتَها مَسُون .
 وإن رَوَيْتَهم وِعم في ملابسهم السود لَمَّا تنقبض لها النفس ،
 فَقَلَّ أَنْ تَخْرُجَ كَلِمَةٌ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ يَسْتَرُوحُ مِنْهَا السَّامِعُ رَوَاجُ
 الرِّفْقِ أَوْ يَجْدُرُ بِرِجِّ الْبِرِّ فَلَا يَكَادُ يَسْمَعُ إِلَّا نَعِيْبًا يُوْذِنُ
 بِحُلُولِ الْعِقَابِ

فَإِذَا مَرَرْتَ بِهِمْ حَسِبْتَ أَنَّكَ أَمَامَ خَلِيَّةٍ دُونَهَا خَلَايَا
 النُّحُلِ — خَلِيَّةٌ تَطْنُ فِيهَا الْعُقُولُ طَنِينًا حَتَّى لَيُؤَوِّئَنَّ لَكَ وَقَدْ
 أَخَذَتْكَ الْوَحْشَةُ أَنَّكَ فِي مَعْبِدٍ مَظْلَمٍ تَعْمُرُهُ الْأَرْوَاحُ .
 وَكَانَتْ الْقَاعَةُ عَلَى تَرَامِي أَطْرَافِهَا لَا يُضِيئُهَا إِلَّا سَرَاجٌ وَاحِدٌ
 فَمَشَى الرَّجُلُ فِيهَا وَقَدْ شَدَّ مِنْهُ ذَلِكَ الظَّلَامُ الَّذِي عَجَزَ عَنْ
 تَبْدِيدِهِ السَّرَاجُ ، فَلَمْ يَسْتَجِبْ أَنْ يُسْأَلَ أَوَّلَ مُحَامٍ لَقِيَهُ فِيمَا
 الْقَوْمُ ؟ قَالَ قُضِيَ الْأَمْرُ ، فَأَرْتَعُ وَقَالَ قُضِيَ الْأَمْرُ ، نَطَقَهَا
 بِمَرَادَةٍ لَفَتَتْ إِلَيْهِ الْحَامِي . فَقَالَ أَلَعَلَّكَ قَرَابَةٌ ^(١) لَهُ قَالَ
 لَا شَأْنَ لِي وَلَا قَرَابَةَ . فَهَلْ حَكَمَ بِالْإِدَانَةِ ؟ قَالَ أَسْتَحَالُ
 غَيْرَ ذَلِكَ . قَالَ أَتَرَاهُ سَيَجْنُ الْأَبَدَ . قَالَ نَعَمْ . قَالَ بِصَوْتِ

لا يكاد يُسمعُ لقد عُرِفَتْ إِذَا شَخْصِيَّتُهُ . قال أَيْةُ شَخْصِيَّةٍ
 لقد كان الأمرُ جليلاً ، أُمْرَأةٌ قَتَلَتْ وَلَدَهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْعِقَابُ
 قال أَعْنِ أُمْرَأةٌ تَتَكَلَّمُ ؟ قال نعم . قال ما لهم وقد فَرَّغُوا مِنْ
 أُمْرِهَا لَا يَزَالُونَ فِي مَقَاعِدِهِمْ . قال إِنَّهُمْ يَنْظُرُونَ مِنْذُ سَاعَتَيْنِ
 فِي شَأْنٍ آخَرَ . قال وما عسى أَنْ يَكُونَ . قال مجرمٌ عائدٌ
 مِنْ أَرْبَابِ السَّوَالِفِ وَأَصْيَافِ السَّجُونَ لَا يَحْضُرُنِي اسْمُهُ
 قَدْ أَخَذُوهُ بِسُرْقَةٍ جَدِيدَةٍ وَلَعَلَّهُمْ لَا يَتَلَوَّمُونَ فِي الْحُكْمِ
 عَلَيْهِ ، فَسَحَنَتُهُ سَحَنَةُ الْفَانَاكِ ، وَلَوْ كُنْتُ قَاضِيَا لَكَفَتْنِي
 النَّظَرَةُ إِلَيْهِ مَوْوَنَةُ التَّحْقِيقِ فِي أَمْرِهِ ، قَالَ أَلَا يَتَسَنَّى لِي
 الدُّخُولُ ؟ قَالَ إِنْ الْقَاعَةُ مَكْتَتِظَةٌ بِالنَّاسِ وَقَدْ رُفِعَتِ الْجُلُوسَةُ
 فَإِذَا عَادُوا إِلَى النَّظَرِ فَرِمَا تَهْيَأُ لَكَ الدُّخُولُ فِي غِمَارِ النَّاسِ قَالَ
 وَمَنْ أَيْنَ أَتَخَلَّصُ إِلَيْهَا . قَالَ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ الْكَبِيرِ . ثُمَّ
 غَادَرَهُ الْحَامِي وَهُوَ عَلَى غَيْرِ أَسْتَوَاءٍ ، وَكَأَنَّ إِبْرَأَ مِنْ الثَّلَاجِ
 ، وَنِصَالًا مِنَ النَّارِ قَدْ أَعْتَوْرَتْ فَوَادَهُ وَخَزَا وَطَعْنَا وَلَمْ يَدِرْ
 أَكُنْ مَا نَاهَا أَلَمْ أَمْ السَّرُورُ . وَجَعَلَ يَقْتَرِبُ مِنَ النَّاسِ وَهُمْ

قنابل^(١) قنابل يتحدثون فسمعهم يقولون إن هذا الرجل قد سرق تفاحا، فهو وان لم تثبت عليه السرقة فقد ثبت أنه من المجرمين العائدين وقد انقضى استجوابه وشهدت الشهود ولم يبق إلا دفع المحامي وردَّ النائب وربما استوفى ذلك من الليل نصف عمره ولا نظنه يُفَلَّتْ من العقاب . فالمدعى فتى ذكى الفؤاد أديبٌ ينظم الشعر ويعرف كيف يُوفى الاتهام حقَّه . فدنا من الباب فوجد عنده حاجبا فسأله متى يُفْتَحُ ، فقال لا يفتح ، قال كيف والجلسة على وشك الانعقاد بعد رفعها قال قد عُقِدَتِ الجلسة والقاعة قد ضاقت بمن فيها ، قال ألا أجد فيها مكانا أصِفُّ فيه قَدَمَيَّ ، قال لا ، ثم عطف قائلا إن خلفَ الرئيس مكانا أو مكانين لا يُؤذَنُ بحلوهما لغير الخاصة . ثم ولَّاه ظهره . فنكس الرجل رأسه ومشى مَشِيَّةَ الحائر وهبط بعض الدرج وهو من نفسه في حرب عَوَافٍ ثم أخرج من جيبه بَيْضَاءَ^(٢) خَطَّ فيها ، مادلين شيخ (مونترای

(١) جماعات جامات (٢) أنى ورقة بيضاء

سير مير) ثم صعد الدَّرَجَ وشقَّ الصفوف وأتى الحاجب وقال له بصوت الأمر إحمل هذه الى الرئيس . فأخذها الحاجب وألقى عليها نظرة عجي و مضى طائعا

منذ سنين سبع و (مادلين) نابه الذكر قد اقترن اسمه بالثناء ، وملأت شهرته جوانب الأفق فجازت حدود بلده الى ما جاوره من البلدان فتعلم ^(١) الناس فضله وأخصب به الزمان والمكان ، فنمت في عهده صناعة الخرز الأسود وكانت له يد على الصناعات فمد المصانع بالمال حتى حسد بلده عليه

وكان رئيس الجلسة في (آراس) ممن يُعظمون (مادلين) ويُبجلونه ، فلم يكذب يحمل الحاجب اليه رقعة حتى أذن له فعاد الحاجب فسلم وأثنى حتى كاد يمس الأرض بحببته وحتى تبين (مادلين) إعظامه في جماليق عينيه وقال له ليدخل سيدي غير مأمور . ومشى أمامه مشية العبد القن ذلك الذي كان يؤليه ظهره غير مكترث له ثم مد له

يده برقعة الرئيس فتنلوها وأقرب من المصباح وقرأ على
صوته ، أن رئيس المحكمة بأراس يهندي تحية يمازجها
الإجلال الى الشيخ (مادلين)

ثم تبع الحاجب فلم يلبث أن رأى نفسه وحيداً
في قاعة المداولة وكانت قاعة لا تسرُّ النظر يضيئها شمعتان
قد نصبتا على منضدة اقيمت على بساط أخضر . وذكر
قول الحاجب عند انصرافه : إنك ياسيدي في قاعة المجلس ،
فاذا أدركت ذلك الزرَّ النحاسي الذي تراه بالباب وجدت
نفسك في قاعة الجلسة خلف كرسي — ففعلت في نفسه
تلك الكلمات فعلها واختلطت بما كان يدور في رأسه من
الذكريات المبهمة التي بعثها فيه ما صادفه في ذلك الممشى
وما مرَّ به في تلك الدرج . وأوقت الساعة المرهوبة فحاول
أن يجمع أشنات نفسه فلم يُغن شيئاً ، وتضعض في ساعة
هو أحوج ما يكون فيها الى التماسك تلقاء تلك الحقيقة
الألمية . ولم قُطِعَ في مثلها سلك التفكير وماسكت على المرء

المذاهبُ فقد كان في الموطن الذي يجلس فيه القضاة
فَيُؤَدِّينُون ويبرِّئون . وجعل ينظر نظر الأبله الى تلك
القاعة الساكنة المُرَوَّعة التي يُقَضَى بها على أرواح العباد .
وكان به وهو ينظر إليها أن اسمه سوف يُدَوَّى في جوانبها
وأن المقدور عليه سوف يُخلق في سمائها

وجعل يتنقل ببصره بين جدرانها وبين نفسه ويقول
تَرَى ما هذه القاعة وتَرَى من أنا ؟ وكان قد طوى يوما
وليلة وفعلت فيه رجأت المركبة فعلها ، ولكنه لم يستشعر
ألماً ولم يُحسَّ جوعاً ، ودنا من إطار أسود معلق على الجدار
فيه رسالة عتيقة لا يعلوها زجاج ، خطَّها (جان نيكولا)
(باش عمدة باريس) وأحد الوزراء ، رصد فيها أسماء
النواب والوزراء الذين اقْتَضَبُوا من دورهم اقْتَضاباً وسيقوا
الى السجن ولو أن امراً تفرَّس فيه لأدرك للوهلة الأولى
أن الرسالة قد أخذت من نفسه محلاً ، على أنه قد قرأها
ثلاثاً ولم يملك الفهم ، ولا عجب فقد كان يفكر في (فانتين)
(كوزيت)

وَأَنْقَلْتُ وَهُوَ فِي تِلْكَ الْغَمْرَةِ فَأَخَذَ بِصَرُّهِ قَبْضَةً
الْبَابِ الَّذِي يَفْصِلُهُ عَنِ قَاعَةِ الْجُلُوسَةِ . فَأَذْمَنَ إِلَيْهِ نَظْرًا هَادِئًا
ثُمَّ بَانَ فِيهِ الْخُوفُ ثُمَّ أَطْلَّ مِنْ مُحَاجَزِهِ الْفَرْعُ ثُمَّ تَلَاهَا الْجَزَعُ
فَنَدَى بِالْعَرَقِ جَمِينُهُ ، وَأَتَى عَلَى أَثَرِ ذَلِكَ بِحَرَكَةٍ يُخْطِئُهَا
الْوَصْفُ

حَرَكَةً يَمَازِجُهَا السُّلْطَانُ كَأَنَّهَا تَنَادِيهِ (مَا الَّذِي يَحْمِلُكَ
عَلَى كُلِّ هَذَا) ثُمَّ أَنْقَلْتُ ثَانِيًا فَوْقَ نَظَرِهِ عَلَى الْبَابِ الَّذِي
دَخَلَ مِنْهُ فَأَنْدَفَعَ إِلَيْهِ فَفَتَحَهُ ، وَنَجَا مِنْ تِلْكَ الْقَاعَةِ إِلَى
مَشْيٍ طَوِيلٍ جَمَّ الْمُنْعَطَفَاتُ كَثِيرَ اللَّيَالِي بِهَ طَائِفَةٍ مِنْ
النَّوَافِدِ تَقْطَعُهُ دَرَجٌ لِلْهَيْوُطِ ، تُضِيئُهُ سُرُجٌ ضَائِلَةٌ النُّورِ
كَأَنَّهَا السُّوَاهِرُ

فَتَنَفَّسَ الصَّعْدَاءُ وَاصْغَى فَازَا هُوَ فِي سَكُونٍ
الرَّمُوسُ فَأَنْطَلَقَ يَعْذُو كَمَنْ يَطَارِدُهُ مَطَارِدٌ ، حَتَّى إِذَا غَابَ
فِي أَحْشَاءِ تِلْكَ الْمُنْعَرَّحَاتِ وَقَفَ يَتَسَمَّعُ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ فَلَمْ
يُرَوْعَهُ مُرَوَّعٌ ، فَجَعَلَ يُنْفَسُ عَنْ نَفْسِهِ كَرَبِّ الْعَذْوِ فَأَسْنَدَ
ظَهْرَهُ إِلَى الْحَائِطِ فَوَجَدَ مَسَّ الْبَرْدِ مِنْ حِجَارَتِهِ فَأَعْتَدَلَ مَقْفَقًا

ولما وجد نفسه قائماً وحيداً في جوف هذا الظلام
 تنهياً للبرد والهواجس جعل يفكر. على أنه قد فكر خُمة
 الليل وسرّاة النهار فلم يسمع غير صوتٍ واحدٍ يناديه .
 وأسفاه ! ومرّت به فترة وهو على تلك الحال ، ثم أمال
 رأسه وأرسل ذراعيه وتأوّه آهة الرجل الحزين ، ورَجَعَ
 أدراجَهُ . وجعل يمشى مشية المتناقل كأن لا حقاً لحق به
 في فراره فصَدَّهُ عن قصده ورده الى حيث كان ، فدخل
 القاعة التي برَحها وأخذ نظرُهُ قبضة الباب الذي يفصله
 عن قاعة الجلّسة وكانت من النحاس المصقول ، فبدت له
 كأنها كوكب من كواكب النحاس فجعل ينظر اليها نظرة
 الشاة الى عين النمر ، وأخذ يدانيها ثم اندفع وهو لا يدري
 الى الباب وأهوى بيده الى القبضة فأدار زيرها فاذا بالباب
 وقد انفلق عنه ، وإذا به في قاعة الجلّسة نخطا خطوة وأقفل
 خلفه الباب ووقف يُنعمُ النظر فيما يرى
 وكانت قاعة فسيحة تربو ظلمتها على نورها ، يملأ
 جوانبها الضجيجُ وتارة يغمرها السكونُ قد طرحت

فيها قضية جاز تحوطها خطورة تشوبها المسكنة ويتمشى
في أثناءها انقباض في الصدور

وفي الجانب الذي وقف فيه جلس قضاة لانهم معارف
وجوههم على شئ من الاكتراث ، عليهم أردية بالية ، وهم
بين قارض لظفروه ومغمض لعينيه

وفي الجانب الآخر لفيف من الناس في أخلاق^(١) الثياب
وقد نثر بينهم محامون في شتى الأذياء ومختلف الأوضاع
وعلى ضواحيهم أحراس تهب من أردانهم ريح القسوة ويعبق
أرج الشرف . وكانوا تحت سقف قد كسته الأقدار وفوق
أخشاب قد بلغ منها القدم ، أمامهم مناضد تكسوها
أجواخ صفراء كانت في مية صباها خضراء ، وحولهم
أبواب قد طلاها تداول الأيدي بطلاء من القار ، تضي
لهم سرج من سرج الحانات قد علفت في مسامير مرشوقة
في الحائط تبعث من الدخان فوق ما ترسل من الضواء

وقد نصب على كل منضدة شمعدان من النحاس
أقيمت فيه شمع

وقد كان الظلام الخيم فوق ذلك المشهد المهيّب يُؤلّد
في نفس الناظر شعورين من وقار وإكبار، شعوراً بعظمة
المخلوق ومظهره القانون، وشعوراً بعظمة الخالق ومجلاه
العدل

وقف (مادلين) ولم تأخذه عين فقد كانت العيون
مُصوّبة إلى هدف واحد، مقعد من الخشب بجانب باب
صغير في طول الحائط على يسار الرئيس قد جلس فيه رجل
بين حارسين وشموع تَزْهَرُ
وكان هو الرجل

راه (مادلين) ولم يُجشّم عينيه مؤونة البحث كأنه
كان معه علي ميعاد. وقد خيّل إليه أنه يرى فيه نفسه
ولكن في سنّ عالية، وما كان الشبه بينهما قاصراً على
السحنة ولكنه كان في الموقف والمنظر وذلك الشعر القاف
وذلك النظر الشّرّ الذي لا يفارقه القلق، وتلك الأهدام

البالية التي كان يجول في أمثالها يوم دخل مدينة (دنى)
يحمل في نفسه ضيقاً من الضيق^(١) ويخفي فيها ذلك الكنز
الذي اقتناه في أعوام سجنه

ذلك الكنز الذي جمعه على بلاط السجن من وحنى
الشر ، لا من يقيمات الدر

فأرتعد وقال اللهم غفرأ ، أ كذا تكون العقبي ؟ وكان
ذلك الرجل قد بلغ الستين أوجازها يلوح عليه ضرب من
البله على حواشيه جفوة وأستيجاش

ولما فتح (مادلين) الباب صر صريراً نبه القضاة
ففسحوا له مكاناً وافت الرئيس فحياء ، وحياء على أثر المدعى
العام ، فلم يكذب يامح تلك التجايا لأنه وقع في ذهول قد
افترس طائر حليمه

قضاة وكتاب ، وشُرط ، وجمع مشربب الأعناق
على ظم إلى الاستطلاع . إنه شهد هذا المشهد قبل اليوم
بسبع وعشرين سنة وها هو ذا يشهده اليوم

(١) أى يحقد حقداً شديداً

وما كان ما يراه من عمل الذاكرة أو صنع الخيال ،
ولكنه من صنع الحقيقة . قَضَاةٌ وَشُرُطٌ وَجَمْعٌ مِنَ الْأَحْيَاءِ
قَدْ رُكِبُوا مِنْ لَحْمٍ وَعَظْمٍ فَهَمَّ يَتَحَرَّكُونَ . وَضَحَ ذَلِكَ لِعَيْنَيْهِ
وَبَرَزَتْ لَهُ صُورُ الْمَاضِي فِي أَبْشَعِ أَلْوَانِهَا وَأَرْوَعَ مَظَاهِرِهَا ،
وَأَشْكَلَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ وَصَاحَ فِي أَغْوَارِ نَفْسِهِ
إِنْ هَذَا لَنْ يَكُونَ

ولعبت به الأقدار — وأرته من تهاويلها ما زاد في خيال
عقله حتى كاد يُخَالِطُ فِيهِ . فَرَأَى كَأَنَّ هُنَاكَ رَجُلًا قَدْ
شَقَّ مِنْهُ وَقَدْ تَوَاطَأَ النَّاسُ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ لَمْ يَكُنْ غَيْرَ
(جَانِ فَالْجَانِ)

ثم رأى وياهول ما رأى
رَأَى شِبْهَ مَسْرُوحٍ قَدْ قَامَ فِيهِ شَبَحُهُ بِتَمَثُّلِ أَبْشَعِ
أَطْوَارِ حَيَاتِهِ

وَقَدْ أَخَذَتْ لِذَلِكَ التَّمَثُّلِ عُدَّتُهُ ، فَكَانَ يَرَى نَفْسَ الْمَشْهَدِ
فِي نَفْسِ سَاعَةِ اللَّيْلِ الَّتِي حَكَمَ فِيهَا ، وَكَأَنَّ الْقَضَاةَ هُمْ قَضَاةُ
وَكَأَنَّ الْأَحْرَاسَ هُمُ الْأَحْرَاسُ ، وَالْحَضُورَ هُمُ الْحَضُورُ إِلَّا

أنهم قد رفعوا فوق رأس الرئيس صورة المسيح ولم تكن
تزين قاعات الجلسات في عهد محاكمته ، فحكم لشيْقوته في يوم
لم تشهده عينُ المسيح

وسقط على كرسي كان خلفه سقوط الحجر فزعاً من
أن تقع عليه العيون

وأغيث بشبه عمود من الأوراق المكسدة فوق
منضدة القضاء ، فاستتر به فبلغ أمنيته وجلس يرى من
حيث لا يرى ثم جعل يتمكن من نفسه شيئاً فشيئاً حتى
وضعت له الأمور على حقائقها وخرج من الدهول إلى
الرشد

وكان همه أن يرى (جافير) فرمى بصره بين الشهود
فحالت منضدة الكاتب بينه وبين ما يريد ، وأعانها ذلك
الظلام الذي لم ترقق من حواشيه تلك الشرج

وساعة دخل كان المحامى قد فرغ من دفعه وشهد
الأسماع إلى الإصغاء وقد مرت على مخاصمة المتهم ثلاث
ساعات ، والحضور يرون أمامهم رجلا ينوء شيئاً فشيئاً بثقل

ذلك الشَّبه الغريب الذي أوشك أن يحلَّ في لباسه . ولقد كان الرجل مجهولاً ، كأنَّ أحدَ أولئك البائسين الذين تنتشرُ على وجوههم طبقات من البَلَه أو من تَصْنَعُ البَلَه ، فهو إما أن يكون من أشد الناس بَلَهًا أو من أوفاهم قسطًا في الذكاء كان أَفْضِيًّا^(١) قد أخذوه بفرع من التفاح الناضج اقتضبه من شجرة في بستان (يرون)

فيأتري من هو هذا الرجل ؟

جـرى التحقيق وشهدت الشهود وتألقت فجأت من النور في ظلمات ذلك الأفق ! افق التحقيق وقال الاتهام : إنما لم تقع على سارق هين الأمر يختلس الثمر أو أحد أبناء السبيل ، ولكننا قد ظفرنا بمجرم فائر وقبضنا على شاطر عيار من قطاع السبيل وفاتك من شر الفتاك ، ذلك (جان فالجان) الذي جد الشرطة في تعقبه منذ عهد طويل

(١) يضرب في الافاق

ذلك الذى استوفى عُمُرَ العقاب فى سجن تولون وقَطَعَ
 يوم سُرح منه السبيلَ على غلام من سكان (ساقواى) اسمه
 (يتي فيرجى) وقد دخلت جريمته تلك تحت طائلة المادة
 ٣٨٣ من قانون العقوبات ، وانا أنرجي أخذَه بها حتى يثبت
 لنا شخصه

وقد ركب هذا الفاتكُ جريمة جديدة فهو إذاً من
 أعودوا الإِجرام ، نخذوه اليوم بجريمته الجديدة
 وكانت عوامل الدهش تفتابُ المتهم أمام هذه التهمة
 وذلك الإِجماع من الشهود

وتبدر منه بوادرُ من الحركات والاشارات تأويلها
 النكرانُ ، فهو وان خافه النطق ، أو تعصَّى عليه الكلام
 فقد قام فى جسمه من فرعه إلى عقبه خطيبٌ ينادى :
 أنى مأخوذ بجريمة غيرى ، وآفتى فى ذلك شبهة غير ميمون
 وقد وقفت وقفة الأبله بين صفوف من الذكاء كأنها
 جنود قد اصطفت للزال ، وقد قبضت عليه يد لا تفلته
 وأنشأ القضاة ينسجون له مستقبلا من خيوط الوعيد

وَعَبَّرَتْ تَمْشِي إِلَيْهِ التَّهْمَةُ عَلَى جَسَرٍ مِنْ ذَلِكَ الشَّبَّهِ
الْمَشْتُومِ ، وَكَانَ قَلَقُ الْجُمْهُورِ عَلَيْهِ أَشَدَّ مِنْ قَلْقِهِ عَلَى نَفْسِهِ
فَلَبِثُوا يَتَوَقَّعُونَ الْحُكْمَ بِالْإِدَانَةِ وَيُطَالَعُونَ لَهُ الْمَوْتَ مِنْ ثَنَائِيَا
ذَلِكَ الْحُكْمِ

فَيَأْتِي مَنْ كَانَ ذَلِكَ الرَّجُلُ وَمِنْ أَيْةٍ طِينَةٍ قَدَرَكَبَتْ
تِلْكَ الْبَلَاءَةَ أَنْزَلُ الْبَلَاءَةَ بِالنَّاسِ إِلَى هَذَا الْحَدِّ ، أَمْ كَانَ
ذَلِكَ مِنْ صَنْعِ الْمَكْرُ وَالْخِدَاعِ . أَرَاهُ قَدْ جَازَ حُدُودَ الذِّكَا
أَمْ نَزَلَ إِلَى أَحْطَ مَرَاتِبِ الْبَلَاءِ

تِلْكَ أَسْئَلَةٌ قَدْ شَطَرَتْ الْحُضُورَ شَطِيرِينَ ، وَسَرَتْ
عَدَوِي ذَلِكَ إِلَى الْمُحَكِّمِينَ فَقَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَزْعَجُ وَمَا
يَشْغَلُ الْبَالِ ، وَمَا كَانَ الْعَجَبُ مِنْ سُوءِ حَالِهِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ
مِنْ غَمُوضِهِ

جَوْدُ الْحَامِي فِي الدَّفْعِ وَتَأْتِقُ مَا شَاءَ فِي تَخْيِيرِ اللَّفْظِ
وَكَانَ يُخَاطَبُ بِلُغَةِ الْأَقَالِيمِ ، وَهِيَ لُغَةٌ قَدْ أَلْفَتَهَا الْحَامَاةُ زَمَنًا
طَوِيلًا تَزْعُمُ أَنَّهَا اللُّغَةُ الْبَلِيغَةُ ، وَجَرَى الْحَامُونَ غَلِيهَا أَجْيَالًا
فِي بَارِزٍ وَفِي ضَوَاحِيهَا مِنَ الْمَدَائِنِ . وَقَدْ آلَتْ الْيَوْمَ إِلَى لُغَةٍ

دراسية ولعَ بها الخطباء من أرباب المناصب كرجال النيابة
وأشباههم . راقهم منها لفظُ يرَنّ في الأذن رنينًا يمازجه
الجدُّ ، وأسلوبٌ يمشى الى السمع مشية تصحبها الجلالة

فكانوا إذا ذكروا — الزوج — قالوا البعل —
والزوجة — قالوا الحليلة — والملك — قالوا ربُّ التاج
والصولجان

وإذا ذكروا — باريز — قالوا أمُّ الفنون ومَهْدُ
المدنية . فالمدعى العام في لغتهم — خطيب الاتهام المصنّع
والمرافعة — الصيحات التي تسمعها المحكمة ، وعصر لوزير
الرابع عشر — العصر الكبير — والأُسرة المالكة —
دماء ملو كنا الكريمة — والقائد — الجنديُّ العظيم —
وخطأ الصحف السيارة — الكذب الذي تَنفُثُ سَمِّه
في أنهارها

بدأ المحامي دفعه بتفسير سرقة التفاح وصعَبَ عليه أن
يمرّ فيه بذلك الأسلوب الرائع ، ولا عجب فقد وقع ذلك
(لبوسيه) نفسه ، فقد أرتجَع عليه وهو يُؤبِن مِمَّا عَظِيماً

فَفَزَعَ إِلَى الْإِحْتِمَاءِ بِوَصْفِ دَجَاجَةٍ سَنَحَتْ لَهُ وَخَرَجَ مِنْ
مَأْزَقِهِ ذَلِكَ بَيْنَ التَّهْلِيلِ وَالْإِعْجَابِ خُرُوجِ الظَّافِرِ

أَثْبَتَ الْحَامِي أَنَّهُ لَمْ يَقُمْ دَلِيلٌ مُحْسُوسٌ عَلَى سُرْقَةِ التَّفَاحِ
لَأَنَّ الْمُتَّهَمَ لَمْ تَأْخُذْهُ عَيْنٌ وَهُوَ يَظْهَرُ ^(١) الْحَائِطَ وَيَعَالِجُ
كَسْرَ الْفَرْعِ ، وَلَكِنَّهُ فُوجِئٌ وَهُوَ يَلْتَقِطُ ذَلِكَ الْغَصْبِينَ (وَقَالَ
الْغَصْبِينَ تَهْوِينَا لِلْأَمْرِ) وَاعْتَرَفَ بِأَنَّهُ وَجَدَهُ مَطْرُوحاً عَلَى
الْأَرْضِ فَالْتَقَطَهُ ، وَلَمْ تَأْتِنَا بِمَا يَنْقُضُ ذَلِكَ ، وَلَعَلَّ أَحَدَ
السَّابِلَةِ قَدْ مَرَّ بِذَلِكَ الْبَسْتَانِ ، فَتَسَوَّرَ الْحَائِطَ وَاقْتَضَبَ
ذَلِكَ الْفَرْعَ ثُمَّ أَحْسَنَ خَطْراً فَأَلْقَى بِهِ عَلَى الْأَرْضِ ، وَنَجَا
بِحُشَاشَةِ نَفْسِهِ

لَقَدْ وَقَعَتِ السَّرْقَةُ وَلَكِنَّ الْمُتَّهَمَ لَمْ يَكُنْ بِصَاحِبِهَا
إِنَّكُمْ قَدْ أَخَذْتُمُوهُ بِسَابِقَةِ أَمْرِهِ لِأَنَّهُ مِمَّنْ تَعَوَّدُوا الْإِجْرَامَ
(وَفَاتَهُ أَنَّ ذَلِكَ الْأَمْرَ الَّذِي سَلَّمَ بِهِ فِي عَرْضِ دِفَاعِهِ لَمْ يَبْلُغْ
فِي التَّحْقِيقِ مَبْلَغَ الْيَقِينِ) فَجَاءَ ذَلِكَ التَّسْلِيمُ وَيَلَا عَلَى الْمُتَّهَمِ
ثُمَّ مَضَى فِي دَفْعِهِ وَقَالَ - إِنَّهُ كَانَ مُقِيمًا فِي (فَاغْرُول) يَرْتَقِ

من تشذيب الشجر وحقبة اسمه (شان ماتيه) وأحسبهم
قد حرفوه الى (چان ماتيه)

ثم مرّ بشهادة الشهود مرّاً ولم يدفعها ، وكان يتكئ
في أقواله على إنكار المتهم حتى انتهى الى قوله : فلو سلمنا
أنه هو (چان فالچان) فهل يقوم هذا دليلاً على أنه سارق
التفاح ، إن هي إلا قرينة من القرائن ، وما أثبت ما بينها
وبين الدليل القاطع

لقد أساء المتهم الى نفسه بذلك الإنكار المطرد ،
فأنكر كل شيء — أنكر جرائمه وشخصيته وكل ماصوب
اليه في ماضيه وحاضره ، ولو أنه اعترف بماضيه لا كتسب
بذلك عطف القلوب

نصح إليه المحامى أن يقلع عن ذلك الإنكار فأبى وأصر
وظنّ أنه يخرج من تبعّة كل شيء إذا هو أنكر كل شيء .
ولا عجب فقد كان بليد الذهن ومرّبه من صنوف البلاء
في السجن وبعد السجن ما يبلد الذهن السليم على أن طريقته
التي جرى عليها في الدفع عن نفسه لم تكن مبرّرة للحكم عليه .

وختم المحامى دفعه بالتضرع إلى المحكمين أن ينزلوه
منزلة الفار من السجن لا منزلة المجرم العائد
ورد المدعى العام على المحامى ردّاً رقيقاً مبناه وخشن
معناه . شأن أمثاله من المدعين ، فأننى على صدقه وأطرى
منهجه وعرف كيف ينتفع بذلك الصدق ، وأخذ المتهم
ينزول^(١) محاميه عن التمسك بإنكار شخصيته ، وسجل عليه
ذلك النزول ، فأضاف إلى الاتهام حجة قد دعمت من
حججه وتدرج فى قوله بلباقة حتى وقف على منبع الإجرام
وأنحى باللوم على تجرد المدرسة الروائية من روح الشرف
وكانت إذ ذاك فى فجر ظهورها وقد دعاها النقاد فى الصحف
بالمدرسة الجهنمية ، وعزى — وهو على شىء من الحق —
جريمة (جان ماتيه) أو (جان فالجان) إلى تأثير ذلك
الأدب الخلاب الذى راع العقول
وانتقل بعد أن قضى لُبائته ونضبت مواد القول إلى

(١) يقال نزل عن حقه ولا يقال تنازل عن حقه فإن التنازل لا يكون إلا
فى ميدان القتال أو بين اثنين

(جان فالجان) نفسه فأفاض في وصفه إفاضة كانت أشبه
شيء بما جاء في قصة (تيرامين) ولم يكن لذلك القول مكان
في تلك المأساة ولكنه أسلوب طالما لجأت إليه البلاغة
القضائية

وما زال يقرعُ الأسماع بتلك القوارع حتى أدخل
الرعب على نفوس القضاة والحضور، ومرّ المدعى في ردّه
بتلك الكلمات الخلابة التي استثارت في صباح المخاصمة
حماس الصّحيفة الوحيدة التي كانت تظهر في سماء تلك
المقاطعة

وكان مما قال في (جان فالجان) — رجلُ شأنه ذاك
طريد جوال. لا مرزق له. تعود الاجرام، ولم تُفلح
السجون في تقويم أعوجاجه وتنقية نفسه. فلقد جنى يوم
خرج منها على الغلام (بيتوفر جي)

وقبض عليه بعد ذلك متلبساً بالسرقه على قيد
خطوات من الحائط الذي ظهره، وفي يده ما سرق،
فأنكر التلبس والتسوّر والسرقه، وأنكر حتى شخصيته

وفي يدنا مائة دليل ودليلٌ على ذلك ولا نريد سردها —
دع أربعة من الشهود على رأسهم (جافير) كبير الشرطة
ولا تسألوا عن نزاهته ، وثلاثة من أئدانه الإِجرام ،
فكيف يدفع إجماعهم على معرفة شخصه ، إن هو إلا رجلٌ
جامدُ الشعور ، غليظُ الكبد

وقد كان المدعى يُخطبُ والتهم مُلقٍ بسمعه وقد ففرَّ
الدهشُ فاهُ ونال منه العجب مما يسمع — وكان يحركُ رأسه
يمنة ويسرة كلما اشتدت لهجةُ الاتهام في تلك المواطن التي
تَعَجُّزُ فيها البلاغة عن إمساك سِيلها ، فيتراعى بموجاتٍ من
سبٍّ ونحير ، كانت تَلْفُ المُتهمَ لَفَ العاصفة . وكان
في حركات رأسه تلك ، ضربٌ من احتِجاج فصيحٍ
في صمته بليغٍ في حزنه

وقد لفت المدعى القضاة إلى ذلك الموقف موقف
البَلَاءِ الذي أخذ المُتهمُ نفسه بتمثيله ليخدع القضاة ويستنزل
الرحمة ، فلم تجزُ حيلته علينا وكشفت لنا عما كان يُخَبِّوهُ

في غور قلبه من خبث لا أمد له ، وختم قوله بطلب
الجزاء العادل

ثم وقف المحامي وهنا المدعى ، وأطرى خطبته التي
جازت حدَّ الإعجاب ثم ألقى بكلمات حُضْرَتُهُ وأخذ
يتضمض حتى فَقَدَ كُلَّ تَكَاثُفٍ له ، وحتى شعر كأنَّ الأرض
تميد تحته مِيدَانًا

وحانت ساعة انتهاء المخاصمة فأوماً الرئيس إلى المتهم
بالوقوف ، وسأله السؤال المألوف ، أعندك ما تقول ؟
فوقف وهو يلاعب قلنسوته بيديه وكأنه لم يسمع ، فأعيد
السؤال ؟ وأظنه سمع في هذه المرة ، فَقَدَرُؤَى فَهْمُهُ في عينيه
وكان كمن أَسْتَيْقِظ من سُبَاتٍ .

فجعل ينفض عنه الكسل ويدور بنظره يُحَدِّقُ
في الحضور حتى وقفت عينه على المدعى العام فانفجر
بالكلام آنفجار البركان ، وقد كان الكلام في فيه يكاد يقتل
اقتتالا ، يستبق الخروج بعضه البعض

كنتُ عاملاً في صِنَاعَةِ النحاس في باريس لدى السيد

(بالو) وكانت العمل شاقًا. يَعْمَلُ العامل طرفي النهار
في هواء طَلَق في أفنية البيوت ، أو حُجِرٍ مستطيلة سقفوها
من الخشب ، ولا يُتَّاحُ له أن يعمل مرة في مصنع مُقْفَل
لا يَأْذَنُ للهواء .

فإذا كان الشتاء ووجد العامل مِنًا مَسَّ البرد وتخوَّف
على أعضائه اليَبَسَ ، نزع إلى تحريكها فترة من الزمن
التماسًا لِلدَّفِّ ، فَيُحْفِظُ ^(١) هذا أصحاب المصنع علينا
ويقولون إنه وقت ضائع

وما ظنك بعامل يَصْهَرُ الحديد وهو على أرض من
الثلج إن هذا إلا فناء عاجل . فترى المامل وقد أخلق كما
يُخْلَقُ الثوبُ ، ولبس في صباه لباس الهَمِّ
ولا يكاد يدرك الأربعين حين تدركه السن فْتَمَزَفُ
قُوَاهُ وَيُرْغَبُ عنه ويمسَى سُخْرِيَةً لشرار العمال ، فَيَنْبِزُ وَهَهُ
بأقبح الألقاب . فكانوا يدعونني وقد طويت الثالثة
والخمسین بالشيخ الأبله والعجوز العاجز

وكانت وظيفتي في يومى ثلاثين صليدا . وما حطّ من
أجري في دعوائى غير السنّ . وكانت لى أبنّة تكدح هى
الأخرى فى طلب العيش فتعالج غسل ثياب الناس . فكان
جهنّمنا يفي غلينا بمصارّة تمسك الحياة

تبذل يومها فى السكّة ماتتقى المطر بسقف يحجبها أو
ثوب يسترها ، جائحة فى مهابّ الانواء . وكان عليها أن
تغسل ولو جمّد الماء

فإن من الناس من لا يجد لباسا غير جلده حين
يخرج من ثوبه لغسله ، فلا يزال قائما على يديها يتنجزها فاذا
أنس منها تريثا أو وجد تعللا ، عدل بالثوب إلى سواها
مفاثتت المسكينة تطوى ساعاتها مضطربة فى المغاسل
بين الحارّ والبارد — دع ما كانت تعاني من مضارّة زوجها
لها ، حتى أتى على نفسها الشقاء

ثم أمسك عن الكلام وقد كان يهدر بصوت جهير
أبحّ أجشّ ، وكنت تطالع فى جفوة لفظه وثورة قوله ،
سلامة الضمير ونقاء الجنان

وقد آتاه فوق^(١) كان يحبس أنفاسه، فجعل يستعين
على تأدية ما في نفسه بحركات كنت تخاله معها خطأ بأيشق
جذعاً من الجذوع

وما كاد ينتهي حتى أغرب الجمهور في الضحك، فلبث
ينظر إليهم وهو يجهل مثار ذلك — وما نشب أن فعل
شرواهم^(٢) وشاركهم في ضحكهم، فكان مشهداً مؤثراً تملوه
الكتابة

فصاح الرئيس وكان يقظاً رحماً، فذكر المحكمين أن
السيد (بالو) الذي فزع المتهم إلى شهادته لا يعلم له مقرر
منذ أفلس واختفى

ثم التفت إلى المتهم وقال له: أعرني سمعك واعلم أنك
في موطن أنت فيه أحوج ما تكون إلى التفكير، فقد
انصببت عليك الشبهات، وقامت حولك دلائل لا تلبث
أن تجرّك إلى سوء المصير. فأجب إجابة صريحة عن أمرين

(١) الرغطة (٢) أي مثلهم

هل ظهرت حائط البستان ؟ واقتضبت فرع التفاح ؟ هل أنت (جان فالچان) ؟

فحرك رأسه حركة تُعَرِّبُ عن فهم ما أُلْقِيَ عليه ،
واتجه الى الرئيس وقال :

أما عن الأمر الأول ، ثم سكت وألقى بنظرة على
قلنسوته ، وأخرى على السقف ، خَمَى المدعى العام
وقال له :

ويل لك مالك لا تجيب على ما يُلقَى عليك ، إن اضطرابك
ليُدينك فلست (بجان ماتييه) كما نحاول أن تكون وإنما
أنت ذلك المجرم الفارّ (جان فالچان) فقد ذهبت الى
(إفرون) وولدت في (فافرول) وكنت بها مُشَدِّباً للشجر ،
وظهرت حائط بستان واقتضبت منه فرعاً من التفاح ،
وللمحكمة تقرير مصيرك

وكان المتهم قد أهوى على مقعده تخاذلاً ، والمدعى
يخطب حتى اذا أنهى من خطابه استوى قائماً وصاح به :

مَا أَخْبَيْتَكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ ؛ وَهَذَا كُلُّ مَا أُرِيدُ أَنْ أَقُولَهُ
 لَكَ ، وَقَدْ كَانَ يُعَوِّزُنِي الْقَوْلُ
 لَسْتُ مِنَ السَّرَقَةِ وَلَا أَنَا بِذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي يُصِيبُ
 مَا يَتَبَلَّغُ بِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ
 إِنِّي أَتَيْتُ مِنْ (إِلَى) نَخْرَجْتُ أَضْرِبُ فِي الْبِلَادِ رِغْبَ
 سَمَاءٍ ، وَقَدْ كَسَا الْغَيْثُ وَجْهَ الْأَرْضِ بَيْسَاطٍ مِنَ الرَّمْلِ
 الْأَصْفَرِ ، هَاجَهُ إِنْجَاحُ السَّيْلِ مِنْ بَطُونِ الْمَنَاقِعِ ^(١) وَطَمَرَ
 بِهِ الزَّرْعَ حَتَّى مَاتَقَعَ الْعَيْنَ عَلَى غَيْرِ أَعْوَادٍ دَقِيقَةٍ مِنَ الْحَشَائِشِ
 عَلَى عِطْفَى الطَّرِيقِ
 وَكُنْتُ التَّقَطْتُ مِنَ الْأَرْضِ فِرْعَا مَهْشُومًا بِهَ تَفَاحٍ -
 إِنْ تَقَطَّطَتْهُ وَمَا كُنْتُ أَدْرِي أَنِّي أَلْتَقِطُ الشَّقَاءَ . وَقَدْ لَبِثْتُ
 فِي السِّجْنِ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَأَنَا أَتَقَلُّ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ وَهَذَا
 مَبْلَغُ مَا عِنْدِي مِنَ الْقَوْلِ
 إِنَّهُمْ يَرْمُونَنِي بِالتَّهْمِ وَيَطْلُبُونَ مِنِّي دَفْعَهَا ، وَيَدْفَعْنِي

الحارسُ عَلَى طيبة فيه إلى الكلام، يُغْرِيتِي بذلك همساً ،
وأنا لا أدري كيف أَفْصَحَ عما في نفسي . إني لم أَصِبْ من
العلم ولم يُثَقِّفْنِي مُثَقِّفٌ ، فأنا فقير الإدراك ولكنهم قد
أغْمَضُوا العيون عن ذلك فأخطأوا حقيقة أمرى

أَفَ لَكُمْ لَقَدْ ذَهَبَ بِكُمْ الْمَكْرُ إِلَى حَدِّ الْقَطْعِ بِمَعْرِفَةِ
الْمَكَانِ الَّذِي وُلِدْتُ فِيهِ . عَلَى أَنِّي لَا أَزَالُ أَجْهَلُ مُوَلَدِي
وَلَيْسَ لِكُلِّ مَنْ يَهْبِطُ إِلَى هَذِهِ الدُّنْيَا بَيْتٌ يُولَدُ فِيهِ ،
وَلَوْ تَهَيَّأَ ذَلِكَ لِلآنِ الْعِيشِ وَطَابَتِ الْحَيَاةُ ، وَأَكْبَرُ ظَنِّي
أَنَّ وَالِدِي قَدْ كَانَا مِنْ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعِيشُونَ فِي الطَّرَقَاتِ
وَالْمَسَالِكِ

وَجَلُّ مَا أَذْكُرُهُ أَنَّنِي كُنْتُ أَذْعَى وَأَنَا حَدَّثْتُ
(بِالصَّغِيرِ) وَالْيَوْمِ ادْعَى (بِالشَّيْخِ) وَلَا أَعْرِفُ لِي أَسْمَاءً
غَيْرَ هَذَيْنِ ، فَأَوَّلُوا قَوْلِي مَا بَدَأَ لَكُمْ أَنْ تَوَوَّلُوا
وَلَا أَكْذِبُ اللَّهَ فَقَدْ كُنْتُ فِي (الْأَفْرُونِ) وَكُنْتُ
فِي (فَافْرُولِ) وَلَيْسَ مِنَ الْحَتْمِ أَنْ مَنْ كَانَ فِيهِمَا يَكُونُ مِنْ

أهل السجون . لقد أعنتموني بترهاتكم فعلاَمَ يتعقبني
الناسُ كما يتعقب الموتور وائرهُ
فأبجه المدعى العام إلى الرئيس وقال :

لقد أحكم المتهم تمثيلَ ما أخذ نفسه به من التبله ،
يحاول إيهامنا أنه أبله ، ولكنه يعالج الحال بذلك الإنكار
وأظن أن المحكمة لا ترى بأساً في مواجهته بالشهود مرة
أخرى ، وسؤالهم على مسمع منه

فقال الرئيس اني أذكر المدعى العام أن (جافير)
وهو كبير الشرطه قد دعاهُ عملُهُ من أعماله في المقاطعة
المجاورة فأذِنَا له بعد الشهادة ، وكان ذلك بين سماع المدعى
وبصره والمحامي عن المتهم شاهد غير غائب ، وما ارتفع منهما
صوت بالاعتراض

فقال المدعى لم يرغب عن ذلك ولكني أذكر المحكمين
أن (جافير) قد شهد قبل ذهابه شهادة لا يزال أثرها
في النفوس و (جافير) رجل قد تعلم الناسُ صدقه ونزاهته
وإني ملقٍ عليكم بما قال

لست في حاجة إلى إقامة البراهين المحسوسة أو الإدلاء
بالحجج المموسة فإني أعرف هذا الرجل حق العرفان ،
فما هو (بجان ماتيه) كما يزعم وإنما هو (جان فالجان) ذلك
الفتاك العيَّار والمجرم الأثيم — سُرحَ من السجن بعد أن
انطوى أجل عقابه ، فخرج منه والعدل في أسف على
خروجه

لقد قطع في السجن تسعة عشر عاما عالج في مداها
الهروبَ مرارا . وسطا بعد ذلك على غلام صغير ثم ظهرَ
حائط بستان ، وأكبر ظني أنه سرق آنية ذلك العابد
الكريم ليلة آواه في مدينة (دني) وأذكر أنني رأيته
في سجن تولون أيامَ كنت أقوم بعمل الشرطة هناك .
فأنا به أعرفُ من أمه التي ولدته

وفعلت تلك الشهادة في نفوس الحضور فعلمها ، وألحَّ
المدعى على أثرها بطلب الشهود فألقى الرئيس كلمة على أحد
الحجاب فانطلق يعدو . وما هو إلا أن غاب حتى فتَحَ بابُ

قاعة الشهود ورعى الحضور برجلين بين رجلين. واذا الحاجبُ
ومعه حرسى من الأحراس يقودان (بريقه) أحد الشهود
الثلاثة وكان من عتاة الأشرار وقد كره الحاجبُ أن يصحبه
وحيداً فاستظهر^(١) عليه بأحد الأحراس. فدخلوا وقلوب
الحضور تخفق خفقة قلب واحد

وكان (بريقه) مجرماً عريقاً قد جاز الستين تلوح
عليه سيما الأندال وترد عليك منه سحنة المهالكين
على ذات^(٢) اليد. وهما خلتان قد تكون بينهما رَحِمٌ،
وقد غيّر منه ما كلبه في السجن من الأذى حتى قال الموكّلون
به أن يريغ^(٣) أن يكون رجلاً نافعاً، وأثنى المتصدقون على
خلال تبعده ولكن يجب أن نذكر أن ما ظهر من الانقلاب
في طباع هذا المجرم إنما وقع في عهد العودة، عودة البربون
فقال له الرئيس (بريقه) إنك رجل قد ركبت من
المنذيات ما سجّله عليك القضاء، فأصبحت غير أهل

(١) أى استعان (٢) المادة (٣) أي يحاول

لِلْحَلْفِ غَيْرِ أَنَّكَ وَإِنْ جَرَّدَتْكَ مِنْ ذَلِكَ يَدُ الْعَدْلِ فَقَدْ
 أَتَتْ رَحْمَةُ اللَّهِ أَنْ تُقْفِرَ نَفْسُكَ مِنَ الشَّرِّ وَالْإِنْصَافِ ،
 خَبِثَتْهَا مَرْقَةُ مَنَهِمَا ، فَاأَسْتَخْلِفُكَ بِمَا بَقِيَ فِي نَفْسِكَ مِنْ
 ذَلِكَ الْحَبَاءِ إِنْ كَانَ لَهُ كَمَا أَرْجُو بَقِيَّةً ، وَأُرِيدُكَ عَلَى أَنْ
 تَبْصُرَ قَبْلَ الْجَوَابِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ الْحَاسِمَةِ . فَكَلِمَةُ مِنْكَ
 تَطْيِيعُ بِحَيَاةِ هَذَا الرَّجُلِ وَأُخْرَى مِنْكَ تُنِيرُ لَنَا مِنْهُجَ الْعَدْلِ
 وَلَا يُضِيرُكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ مَوْقِفِكَ هَذَا إِذَا بَدَأَ لَكَ أَنَّكَ
 تَكُنْ عَلَى الْحَقِّ

ثُمَّ صَاحَ بِأَلْسِنَتِهِمْ أَنْ قِفْ وَقَالَ (لَبْرِيفِيه) أَنْظِرْ إِلَيْهِ
 وَاجْمَعْ أَشْتَاتَ ذِكْرِيَاكَ وَأَنْطِقْ بِوَحْيِ نَفْسِكَ إِذَا كُنْتَ
 لَا تَزَالُ مُصِرًّا عَلَى أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَمْ يَكُنْ غَيْرَ (چَان فَاچَان)
 رَفِيقِكَ فِي سَجْنِ تُولُون

فَأَجَابَ (بَرِيفِيه) وَقَدْ أَتَقَى نَظْرَةَ عَلَى الْجُمْهُورِ إِنِّي أَوَّلُ
 مَنْ عَرَفَهُ فَهُوَ (چَان فَاچَان) رَفِيقِي فِي سَجْنِ تُولُون

دَخَلَ فِيهِ سَنَةُ ١٧٩٦ م وَخَرَجَ سَنَةَ ١٨١٥ م وَقَدْ سُرَّخَتْ

بعده بعام واحد ، وإني أراه يَتَبَّالُه مُنْذُ الْيَوْمِ . ولعلَّ ذلك من فعل السنِّ ، ولقد كان في السجن ساهى الطرف كثير الإطراق

فأوماً الرئيس إليه بالجلوس وأبثَّ المتهم واقفاً وجئاً بالمشاهد الثانى (شذيل ديفيه) وكان لا يزال فى لباس المجرمين وقد أُشْخِصَ من السجن للشهادة وكان قصيراً خفيف الحركة ، ضئيلاً ، كثيرَ تجاعيد الجبهة ، أصفر اللون ، حادَّ الوجه إذا رأيته رأيتَ شبهَ محمود ، نحيلَ الأعضاء ، مضعوفَ الجسم قد رُكِبَتْ فى رأسه عَيْنَانِ تقرأ فيهما آياتُ القُوَّةِ ، وكان رفاقه فى السجن يلقبونه بـ (أنكرُ الله)

فألقي عليه الرئيس تلك الكلمات التى ألفاها على سابقه . وحين ذكره بما كان من ماضيه الذى سلبه حتى حقَّ الحلف رفع رأسه وحدَّق فى وجوه الحضور فقال له الرئيس ألا تزال مصراً على معرفة هذا الرجل

فقهه الشاهد وقال كيف لأعرف رجلاً سلكت
معه في سلسلة واحدة بضع سنين

وجيء بالشاهد الثالث (كوش پای) وكان مجرماً قد
حكم عليه بسجن الأبد وهو فلاح من (لورد) كان يرعى
القطعان في رؤوس الجبال، ثم حال إلى قاطع سبيل وكان
في معارف وجهه ما ينطق بأنه يفوق المتهم بلهاً، وهو من
أولئك الذين بُنيت طبيعتهم ببناء الضواري فنبذهم المجتمع
وقذف بهم في بحور السجون

فرك منه الرئيس بكلمات قاسية وألقى عليه قولاً
ثقيلاً ثم سأله السؤال المعهود

فأجاب المتهم هذا هو (جان فالجان) وكنا ندعوه
لفرطه منته^(١) (بجان لجريك)

ففعلت تلك الشهادة فعلها في الحضور وزاد في أثرها
ذلك الوضوح الذي البسها لباس اليقين

فضاقت القاعة بأهلها وسرت فيها همسات الأسقف
على المتهم ثم جعلت تشتد وتمتد كلما أقيمت شهادة من
تلك الشهادات

وكل هذا والمتهم ملقٍ بسمعه وهو سائح الوجه
سادر النظر، وكان مبلغ احتجاجه على ما يسمع أن كان
يحرك عند انتهاء الشهادة رأسه ويقول على مسمع الحرس :
شيء حسن

فقال له الرئيس : ما قولك ؟

قال : شيء حسن !

فعلا الضجيج في القاعة وضع حتى المحكمون وقالوا
هلك والله الرجل

فصاح الرئيس بالحاجب أن ادعُ الناس إلى السكينة
وعلى أثر ذلك سرت حركة بقرب الرئيس وارتفع صوت
ينادى انظروا هنا أيها الشهود

فملك السامعين الرُّوع وهالهم ذلك الصوت الجهير
الذي كان ينبعث من ذلك الحلق الحزين

فالتفتوا الى مَصْدَرِهِ فاذا بهم يرون رجلا قد خرج
من صفوف الخاصة الجالسين خلف القضاة ووثب الى
وسط القاعة . وما هو إلا أن تَرَأَى حتى صاح الرئيس
والمدعى العام وصاح اصياحهما عشرون صوتا : السيد (مادلين)
وما كان إلا هو وقد أَضَاءَ وَجْهَهُ المصباح المنصوب
على مِنْضَدَةِ الكاتب فوقف وقلنسوته في يده . وهو
في لباس لم يتطرق اليه العبث

وكان أصفر اللون قد سرت به هِزَّةٌ وَحَالَ لونُ
شعره فقد دخل مدينة (آراس) وشعرُ رأسه أَرْمَدُ^(١)
فلم يكد يطوى بها ساعة حتى صاح به المشيب ، فشاب
الرجل في مدى ساعة واحدة

فاشرأبت الأعناق وتطلعت النفوس وشجذ
الشعور وصرّت بأهل القاعة فترة من الحيرة ، وَحُقَّ لَهُمْ
أَنْ يَحْجَرُوا فقد سمعوا صرخة نفس ثائرة ، ورأوا أمامهم

(١) أي لون الرماد

رجلا هادئ الطبع ساكن الجأش ، فلم يقع في نفوسهم
أن هذا الواقف المتمكن من نفسه وهو صاحب تلك
الصرخة المروعة

ولم يكن أجل حيرتهم طويلا فقد اتجه الرجل الى
الشهود وناداهم بأسمائهم وصاح بهم : أتذكرون هذا
الوجه ؟

فعل ذلك قبل أن ينبس الرئيس بكلمة ، أو يتمكن
الحرس من الحركة

فبهِتَ الذين شهدوا وأنكروه بإيماءة من الرؤوس
ثم التفت الرجل الى المحكمين وقال : سَرَّحُوا هذا المتهم
وخذوني فأنا (جان فالجان)

فَعَلَّقَتْ الأَنْفَاسُ وَأَخَذَتِ الْقَوْمَ رَجَفَاتُ الدَّهْشِ
ثُمَّ عَلَامٌ خَشُوعَ الْبَلَى ، وَكَأَنَّهُمْ عَوَّلُوا بِقَارِعَةِ سَمَاوِيَّةٍ
فَلَكَهْمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ ، وَكَذَلِكَ تَفْعَلُ جَلَائِلُ الْخُطُوبِ
وَعِظَائِمُ الْأُمُورِ

وَأَنْتَشَرَتْ عَلَى وَجْهِ الرَّئِيسِ طَبَقَةً مِنَ الْعَطْفِ
وَالْحُزْنِ مَعًا ، فَرَمَى الْمُدْعَى بِنَظَرَةٍ عَجَبِيٍّ وَهَمَسَ فِي آذَانِ
الْجَالِسِينَ مَعَهُ لِلْقَضَاءِ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ يَخَاطِبُ الْجُمْهُورَ :
أَبْعَوْنِي طَيِّبًا — وَقَالَ الْمُدْعَى : هَذَا السَّيِّدُ (مَادَلِين) قَدْ
نَزَلَ بِهِ مَانَزِلًا وَإِنَّا لَنَجِدُ^(١) لَهُ وَجَدًا شَدِيدًا وَنَعْلَمُ أَنَّهُ نَبِيلٌ
الْقَدْرَ زَكِيٌّ الْمَشَاعِرَ ، فَإِذَا رَأَى الرَّئِيسُ أَنَّ يَأْمُرُ بِحَمَلِهِ
إِلَى دَارِهِ

فَابْتَدَرَ (مَادَلِين) الْكَلَامَ وَقَاطَعَ الْمُدْعَى بِصَوْتٍ
يَمَازِجُهُ السُّلْطَانُ وَنَطَقَ بِكَلِمَاتٍ تُنَبِّئُهَا هُنَا وَلَا نَخْرِمُ مِنْهَا
حَرْفًا ، فَقَدْ وَعَاهَا أَحَدٌ مِنْ شُهَدَاِ الْحَادِثِ وَدَوَّنَهَا عَلَى
أَثَرِ انْطَوَائِهِ ، وَقَدْ مَرَّ بِهَا أَرْبَعُونَ عَامًا وَهِيَ لَا تَزَالُ فِي آذَانِ
مَنْ بَقِيَ حَيًّا مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّاهِدِينَ :

أَشْكُرُ لَكَ أَيُّهَا الْمُدْعَى فَمَا أَنَا بِمَجْنُونٍ كَمَا تَزْعُمُونَ ،
إِنِّكُمْ عَلَى وَشَكِّ أَنْ أَضِلُّوا ، فَسَرَّحُوا هَذَا الْمَتَّهِمَ

وخذوني فأنا المجرم الذى تَنشُدون

وليس هنا سواى من ينظرُ بغير غطاءٍ فيها كم الحقيقةِ
خالصةً غير مشوبة

إني وقفتُ هذا الموقف لذات الله العلى وهو حسبي
فخذوني . فقد طببت بذلك نفساً

إني أردت الحسنى فتنكرتُ حتى أثريت وأصبحت
شيخاً (لمنترأى سيرمير) وألقيتُ بنفسى بين الأختيار فلم
يفسح لى الخطُّ بينهم مكاناً ، فحُتَّتْ وفى النفس أشياء لا يسعنى
سرُّ دُها ، فلا أثقلُ عليكم ببسط ما صنعتُ فى أيام توبى
فإن الغد ببسطه كفيل

إني سرت مولاي العابدَ وسطوت على ذلك الغلام
الصغير فحقَّ لهم أن يصموا (جان قالجان) بأنه فاتك
أنيم وما كان له الخطُّ^(١) كله وإن كان من الخاطئين —
وليس لحقير مثلى أن يعترض على العناية أو ينصب نفسه به

لمناصحة الناس ، ولا أكذب الله ، فإن العار الذي عاجلت
نضحه عن نفسي كان أمراً إداً

ولا يفوتنكم في هذا الموطن أن السجن قد كان لي
شرّاً أستاذ فهو يُخَبِّثُ النفس ، ويمزّق شمل الفضيلة ، ولقد
صدق من قال : إن السجون تَخْلُقُ الأشرار

فلقد كنت قبله فلاحاً فذمّاً^(١) فأطلع مني السجنُ
شريراً وكنت عوداً من الخطب فصيرني شُعلةً ، ثم ردتْ
إليّ الرحمة ما سَلَبْتَنِيهِ القسوةُ فنجوت بنفسي ولكن
بعد الفوت . فاذا دقّ عن أفهامكم ما أقيه الساعة عليكم ،
فهناك في رَمَادِ المَدْفَاةِ تجدون القطعة الفضيلة التي سلبتها
من ذلك الغلام

« وإليك أيها المدعي أسوق الكلام ، إني ليعرض لي أنك
غير مُصَدِّق ، وأقرأ ذلك في حركات رأسك ، فاناشدك
الله ألا تأخذ هذا المهم . الويل لي أليس هنا من يعرفني ؟

إني ليحزنني غيَابُ (جافير) ولو كان حاضراً لوضح الحق «
 ليس في طوق كاتب أن يصور ما كان في كلمات هذا
 الرجل من نبرات السكابة ورنات الأسي التي كانت تصحبها
 عبققة من الحسنی

ثم انقل الى الشهود الثلاثة وقال: (بريشيه) ألا
 تزال تنكرني؟ —

فاعترت (بريشيه) الرعدة وجعل يصعد فيه بصره
 ويصوبه، ومر الرجل في كلامه فقال: وأنت (يا شانيلديوه)
 ألسنت كنت تدعى في السجن بـ (أنكر الله)؟ ولي
 فيك آية

حرق بكتفك اليمنى، حاولت أن تمحو به الثلاثة
 الأحرف التي وسمت بها فلم يغن ذلك عنك شيئاً وثبتت
 الأحرف في مكانها. أرايتك؟ ألم أقل حقا؟
 قال بلى:

ثم تحول ذلك المسكين الى القضاة والحضور وعلى فمه

بِسْمَةِ مَا ذَكَرَهَا رَائِيهَا إِلَّا وَجَدَهَا غَمَزَا عَلَى قَلْبِهِ ، بِسْمَةِ
 قَدْ جُمِعَتْ بَيْنَ حَلَاوَةِ الظُّفْرِ وَمَرَارَةِ الْقُنُوطِ

فَذَهَبَ بِأَهْلِ الْقَاعَةِ وَحَالُوا إِلَى عَيُونٍ تَنْظُرُ ، وَأَفْتَدَتْ
 تَحْقِيقُ . فَلَمْ تَعُدْ تَرَى فِيهَا قَضَاةً وَلَا مَدْعِينَ ، وَلَا تَلْمَحُ
 أَشْرَاطًا وَلَا مَدَافِعِينَ ، وَقَدْ انْسَى كُلُّ غَرَضَةٍ : انْسَى الرَّئِيسُ
 أَنَّهُ جَاءَ لِلرِّيَاسَةِ - وَالْمَدْعَى أَنَّهُ قَامَ لِلاتِّهَامِ - وَالْمَحَامِي أَنَّهُ
 مَثَلُ الدَّفْعِ - وَالْحَرَسُ أَنَّهُمْ أَقِيمُوا لِلْحِرَاسَةِ - فَلَمْ يَنْبَسِ
 خَلْقٌ بِكَلِمَةٍ ، وَلَمْ يَفْزَعْ ذُو سُلْطَانٍ إِلَى سُلْطَانِهِ

وَلَا عَجَبٌ فَإِنَّ لِلْمَشَاهِدِ السَّامِيَةِ خَوَاصَّ تَمَلَّكَ عَلَى
 رَأْيِهَا الْمَشَاعِرَ وَتَحْمِيلُ شُهُودِهَا إِلَى نَظَائِرِ^(١) يُخْرِجُ بِهِمْ فِرْطُ
 مَاثِمٍ فِيهِ عَنْ حَدِّ الشُّعُورِ ، فَلَا يَكَادُونَ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى
 فِي أَنْفُسِهِمْ عَنْ مَا تَى ذَلِكَ اللَّأَلَاءِ الَّذِي يَذْهَبُ سَنَاهُ
 بِأَبْصَارِهِمْ ، فَهُمْ فِي دَاخِلِهِمْ مَأْخُودُونَ بِرَائِعِ مَا يَشَاهِدُونَ
 فِي خَارِجِهِمْ

وضَحَ الصُّبْحُ وتكشفت ظلمةُ الشَّكِّ (جان فالجان)
فأَنارَ ظهوره السَّبِيلَ ، وكشفَ عن ذلك الحَادِثَ ، وأدركَ
ذلك الحَفْلُ الحاشدَ ما كان من حقيقة الأمر — أدركه
بأسرعَ من خطفة البارق أو نبضة الكهرباء
رَجُلٌ يفتدى بنفسه رجلاً آخر — لله ما أنبل هذه

النفس

ثم قال الرجل إنني لا أريد أن أُطِيلَ عليكم أمدَ ما أنتم
فيه فقد عَزَمْتُ على الذَّهابِ لأنهم يَأْبُونُ أن يأخذوني —
وعندي ما يدعوني إلى الرجوع ، والمدعى العامُّ يعرف من
أنا ، ويعرف أين يجذني متى حَلَّ له ذلك
قال ذلك وَغَبَرَ يَمْشِي إلى البابِ بِقَدَمِ مُطْمَئِنَّةٍ ، فما
رُفِعَ صَوْتُ ولا امتدت ذِرَاعُ لَسَدٍ سَبِيلَهُ — مشى وقد
حَلَّ فيه حَنٌّ من العناية ما حلَّ في إنسان إلا تراجمت
أمامه الصفوف واصطف الوقوف

فاما بلغ الباب وجده مفتوحا ، فالتفت إلى المدعى

وقال :

أنا رهن أمرك . وعطف قائلا :

أيها الحضور ألا ترون أنني جدير بالرحمة ، ولعلي كلما
فكرت في أنني كنت على وشك القيام بهذا الصنيع وجدّتي
حقيقا بالغبطة

ثم خرج فصنّف^(١) الباب كما فُتح - ولا يعدم صاحب
العمل الجليل أن يجد له في المجتمع نصيرا
وعاد القوم بعد فترة إلى أنفسهم ، فأمر المحكمون
بتسريح (جان ماتيوي) نخرج وهو يقول في نفسه ، ما أشدّ
جنون هذا الناس ، فأنا لا أكاد أفقه شيئا من جميع مامر
بي في هذا الحادث

« عود إلى فانتين »

تنفّس الصبح فقامت فانتين ، وكانت قد سهرت الليل
كله ، ولزمتها الحمى فحمة ذلك الليل ، وكانت تلمح من خلال

(١) صنّف الباب أي رده

آلامها صُوراً من وجوه السعادة بقرب طفلتها - فانهزت
الراهبة نُهْزَةً نومهـا وكانت قد ساهرتهاـا وخرجت تُهْيـى
لها جُرْعة من الكينا

وبينا هي عاكفة على عقايرها وقواريرها وقد ألقى
الشفقُ على الأرض ضباباً يُعَصِّرُ فيه قُبُ العين ، وإذ بها قد
التفتت التفاتةً أو شكت معها أن تصيح

رأت (مادلين) وهو منها أدنى شيء ، فصاحت :
أسيدي الشيخ أرى

فقال نعم ، وكيف حال المريضة قالت : ليس بها الساعة
من بأس وقد كنا نتوقع لها بالأمس شراً ، ثم أعلمته علمها
وقالت : ولولا أن فكرة رفعت عنها لما طلَعَ عليها هذا
الصباح ، فقد حَمَلَتْ غيَابَكَ على الذهاب لِتَفْقُدَ طفلتها
ولم تجرأ الراهبة على سؤاله أين كان ؟ ولكنها لم يغب
عنها أن ملامحه لم تكن تنطق بأنه قادمٌ من ذلك الوجه
فقال لها أحسنت في تركها على زعمها ، فقالت وما عسى

أن تقول لها اذا رأتك وحيدا؟ قال إن الله يلهنا الجواب
وكان الصبح قد وضع نوره، فرأت الراهبة في مادلين
ماراعها - رأت شعره الأرمـد قد حال كله الى شعر
أبيض. فصاحت به أي خطب نزل بك فشيبك
ثم وافته بمراة صغيرة كان الأطباء يستخدمونها
في التحقق من الموت، يضعونها على فم المريض فتكدرها
أنفاسه إن كان لا يزال حيا. فأخذها مادلين ونظر فيها
نظرة، وقال حسن

فجمدت الراهبة في مكانها وعطف مادلين قائلا :
أليس من الميسور أن أراها الساعة؟ فقالت انك لم تأت
بطفلتها خفيـر لها ألا تعلم بقـدومك، ومتى جئت بها علمت
من نفسها بأن غيابك إنما كان لذلك، فتنجو المريضة من
آلامها و تنجو نحن من نسج الكذب

فلبث غير بعيد ثم قال بلهجة الجاد الساكن : أريد
أن أراها الساعة فربما كنت عجلاً - فلم تفتن الراهبة لما

كان في كلمة (ربما) من المعنى الغامض الغريب ففَضَّت من
 بصرها وقالت محتشمةً : ليدخل سيدي وليعلم أنها نائمة
 فتقدم الى ^(١) الخادم بإصلاح باب لم يكن مطمئنا
 في مكانه ، كراهةً أن تتأذى المريضة بصريه
 ثم دخل مخدعها وهو يُخافُ من مشيته ودنا من
 سريرها وفرَّج عنها الستائر فاذا هي نائمة
 وكان نَفْسُهَا يَشْخَصُ من صدرها شخوصا بيعت الأسي
 وتلك آية ذلك المرض المُضال التي طالما جفت نفوس الأمهات
 السواهر على أولادهن الذين أُرِمَ فيهم حكم الموت
 وكان هذا التنفّس الشاق يكدر ذلك الصفاء العجيب
 المنبسط على وجهها - ذلك الصفاء الذي كان يبدل في نومها
 من مرأى ذلك الوجه - وكان اصفرارها قد بلغ حد البياض
 وأُمست خدودها قرمزيةً ، وكانت أهدابها الطويلة (وهي
 البقية التي بقيت من جمال البكارة والشباب) لاتزال

(١) تقدم الى أى أمر

تُخْتَلَجُ فوق ذلك الطرف الساجي

وقد اهتز جسمها من فرعها الى قدمها ، كأنَّ أجنحةَ
خَفِيَّةٍ قد رُكِبَتْ فيه وأوشكت أن تُنْشَرَ للطيران . حتى
ليُخَيَّلَ للناظر اليها أنه يُحْسُّ تَرْوِيحَهَا وان لم تقع عليها عَيْنُهُ
فلا يقوم بنفسه أنه يرى مريضة قد يُئْسَ منها —
فهى الى من يُصَوِّعُ ^(١) للطيران أقرب منها من يَتَهَيَّأُ للنزول
الى القبر

ألم تَرَ الى الغصن كيف يضطرب كلما امتدت يده لقطف
زهرة — ألا يلوح لك أن ذلك الغصن كأنه يجود بنفسه
و كأنه يختلسها فى آن ، فهو يُعْطَى وَيَمْنَعُ فى وقت معاً
كذلك الجسمُ البشرى فقد انتابه تلك الهزاتُ حتى
تَحِينُ السَّاعَةُ التى تمتد فيها يدُ الموت الخفية لاقتطاف ^(٢)
الروح

(١) صوع أى تهبأ للطيران

(٢) اقتطف مثل قطف وقد أنكرها بعضهم حتى وجدناها فى شعر الاعشى
فى الجاهلية وفى شعر جرير فى الاسلام فهى عربية بدوية قال الاعشى
لما أُمالوا الى الشباب أيديهم * ملنا بيدين فظل الهمام يقتطف

وقف مادلين بجانب سريرها وهو كأنه بعض
لأن نصاب وجعل يتنقل ببصره بين المريضة والصليب كما
كان يفعل منذ شهرين ، ليلة زارها للمرة الأولى . وكان
المنظرُ واحداً في جميع وجوهه إلا أن شعره في هذه المرة
كان قد عمّه الشيبُ

دخل وحده ولم تصحبه الراهبة ووقف بجانب سريرها
كما ذكرنا وأصبعه على فمه كأنه يأمر أحداً بالسكوت .
ففتحت المريضة عينيه وأسأله سؤال العطيف وهي تبتسم
(أين كوزيت)

قالت ذلك وما أخذها دهشٌ ولا استخفها فرحٌ
فقد كانت هي الفرحة بعينه ، وعجيب أن يفرح الفرحة
أقلت هذا السؤال (أين كوزيت) وليس في نفسها
ظلٌ للشك ولا في خاطرها جولةٌ للقلق — فألجم اليقين
المتجلى في ذلك السؤال ، لسان مادلين فلم يخرج جواباً

ثم سررت في حديثها ! لقد كنت عالمة بوجودك رغم
سلطان النوم، وكانت عيناى تتعقبانك أنى سررت - رأيت
كأنك كنت محلّقا في سماء من المجد يطيف بك نور سماوى
على أنى أعادك السؤال (أين كوزيت) لم لم تُنمها بجاني
حتى إذا ما فتحت عينيّ فتحتها على تلك الطلعة الهية
فأجابها بكلام لا يرتاح له العقل ثم لم يلبث أن نسيه
على أثر اللقاء

وأغاثه حضور الطيب الذى ابتدرها عند دخوله
بقوله : اهدنى فان ابتكت هنا

فبرقت عيناها بريقاً أضاء وجهها وضمت يديها ضمة
تمثل فيها أجلى معانى التضرع إلى الله وأحلاها. ثم صاحت
إلى بها ، وكانت تظن أنها لا تزال طفلة تُحمل - وهم من
أوهام الأمهات مبعثه العطف والحنان

قال الطيب : لم يحن الوقت فإنك لا تزالين فى بقايا
علتك ، فلا آمن عليك صدمة اللقاء . ففى أبلت جئناك

بها . فقاطعته بحماسة لقد شفيت و أعيد عليك القول أنى
شفيت فيالله ما أحق هذا الطبيب فانه يريد أن يحول بينى
وبين ابنتى

فقال الطبيب أرأيت كيف غلبَ عليك الغضبُ وما
دام هذا شأنك فلا سبيلَ الى رؤيتها أو تملكى صوابك
فطأطأت رأسها وقالت وفى صوتها رنة من الأسف
إنها حمقة أرجو أن تغتفرها لى ، ولا تُنزل أمرى على
الجرأة عليك فتأخذنى بما سبق به لسانى . فلقد خرج بى
ما أنا فيه عن حد الرشد . فان كنت تخشى على مَغَبَةِ اللقاء
فأنا صادةٌ بأمرك ، صابرةٌ مع الرضى ، مرتقبة ذلك الوقت
الذى يؤذن لى فيه برؤيتها

على أن رؤية ابنتى ان تحدث فى نفسى ما تتوقع أنت
حدوثه ، وغايتى ان أحدثها الساعة بعض الحديث . لقد
رأيت الليلة صُوراً بيضاء ولحمت أناسا يتسِمون لى - وهما
أناذا أستشعر العافية وأحمد الله فقد مسح ما بى من الالم .

ولكنى سأبث مكنى كَأنى مريضاً إمضاءً لا مُرك وإرضاء
لهؤلاء الأَخوات المقيّبات هناحتى إذا آنسوا منى السكينة
وتيقنوا من إبلالى جاءونى بابتى

جلس مادلين على كرسي بجانب السرير فحوّلت وجهها
اليه وهى تغالت كَيْدَ الألم ويفالِبها لتظهر بمظهر السكينة
وتدعو القوم الى تذليل المصاعب التى يقيمونها فى طريقها
لرؤية طفلها

ولكنها على تجلدها لم تقوَ على الإمساك عن سؤال
مادلين فألقت عليه ألف سؤال وسؤال
لعلها سَفرة ميمونة

لله ما أنبلَ نفسك فقد أنقذت طفلى
خبرنى بربك أكانت جَلْدَةً على المسير
أُتراها تُسكرنى عند اللقاء فقد طال عهدنا
إن الأَطفال كالأَطيار لا يكادون يَذْكرون فى يومهم
مارأوه بالأَمس

ترى كيف كان لباسها وغذاؤها في ذلك المنزل
 لقد كانت تؤلمني ذكرى ذلك في أيام بؤسى أما اليوم
 فقد أصبحت بفضل حدّ بك^(١) عليها قريرة العين رحية البال
 ألا يتسنى لي أن أراها الساعة
 ألا ترى أنها جميلة

ألا تأذن لي برويتها؟ وإن لم تفعل فمن ذا الذي يأذن
 لي سواك

فأخذ (مدلين) يدها بين يديه وقال لها: إن (كوزيت)
 مثال للصحة والجمال وستريتها بعد قليل فاهدئي وأستري
 ذراعيك بغطائك عسى أن تخفّ وطأة السعال
 وكان سعالها يزحم دُفأه في حلقها كل كلمة من كلماتها
 فلم تبد (فانتين) شيئاً من التامل خشية أن تزلزل
 كل آهة من آهاتها تلك الثقة التي تحاول بثها في نفوسهم،
 فجعلت تفوه بأقوال لانتم على الأمل

كل ذلك ومادلين ممسكٌ بيدها ، ونفسه تكاد تسيل جزعا
 خرج الطيب وبقيت الراهبة في مكانها وقد خيم
 عليهم السكوتُ فزقته فانتين بصيحة - إني أسمعها - إني
 أسمعها - ثم بسطت ذراعها تأمرهم بالأصغاء وعلقت أنفاسها
 وجعلت تتسمع

كان في الفناء ولدٌ يلعب - ولدُ البوابة أو ولدٌ من شدت
 من العاملات

تلك إحدى المصادفات التي مازال الإنسان يجدها
 في ثنايا الحوادث المحزنة ؛ كأنما هي جزء مما تهيه يد الغيب
 من عمد التمثيل على مسارح تلك الحوادث
 وكان هذا الولد صبيةً تذهب وتجيء وتجرى دفعا
 لغائلة البرد وتلمس الدفء وهي تضحك وتارة تغنى -
 وكذلك كان

وأى شيء من الأشياء قد خلا من أن تشوبه شائبة من
 لعب الأطفال

تلك هي الصبية التي سمعتها فانتين وظننتها (كوزيت)
وصاحت تلك هي بنيتي وذلك هو صوتها
وانقلبت الصبية من حيث أتت وغاب صوتها ،
فلبثت فانتين فترة وهي مُلقية بسمعها ، ثم فارق وجهها
الإِشراقُ وقالت بصوت سمعه مادلين : قاتل الله الطيبَ
فقد حال بيني وبينك

وبعد قليل عاودها أملها البسّام ، فأنشأت تحدث
نفسها ورأسها مطروح على الوسادة
سَنُصْبِحُ من السعداء ، ويكون لنا بستان جميل ،
تمرح فيه كوزيت وتجري على الأعشاب تُطارِدُ الفَراشَ .
فاذا شَبَّتْ وبلغت سنَّ التناول ^(١) ولسكن متى تبلغ هذه
السن ؟ ثم جعلت تُعَدُّ على أصابعها وتقول : إنها اليوم
في السابعة من عمرها وبعد خمس سنين يكون لها قِناع
أبيض ، وتبدو في هَندام الفتاة

(١) التناول المقدس أو حفل ديني تشهده الفتاة المسيحية لتنميرها

لله ما أحمقني فأني أفكر في الشيء، قبل أوانه ثم أخذت
تضحك

وكان مادلين يُصني إلى تلك الكلمات وكأنه يُصني
إلى هبّ النسيم، وقد غَضَّ بَصَرَهُ وَغَاصَ فِكْرُهُ فِي تَأْمَلَاتِ
لَا قَرَارَ لَهَا

وانقطعت فانتين بغتة عن الكلام فنبه ذلك مادلين
فرفع رأسه فإذا بها في صورة مُرَوَّعة. وكانت لا تتكلم
ولا تتنفس وقد قامت في سريرها نصف قومة وبرزت
كثيفها النحلة من قيصها وأصفار وجهها ووقفت بنظرها
على مشهد مرّوع في الجانب الآخر من الخدع والتسمت
من الرعب حدقتهاها

فصاح مادلين ويك، مابك؟ فلم تجب ولم تحوّل
بصرها ولكنها مسّت ذراعه بإحدى يديها وأشارت إليه
بالثانية أن ينظر وراءه فالتفت، فإذا به يرى چافير
واليك مامرّ من الحوادث قبل ذلك:

خرج مادلين من قاعة الجلاسة وقد انطوى النصف

الأول من الليل وانقلب الى النزل في الساعة التي تهيأ فيها
البريد للسفر ، فأخذ مقعده فيه وبلغ (منترى سيرمير)
قبل الصباح . وماهى إلا أن احتوته حتى أودع صندوق
البريد كتابا الى (لاقيد) الصراف ثم انطلق يعود فانتين
ولما غادر قاعة الجلسة في آراس وعاد الحضور إلى
أنفسهم ، وقف المدعى العام وجعل يتوجع لماديين على ما أصابه
من ذلك المس ، وأصرّ على طلبه وقال إن هذا الحادث
الغريب الذى ستكشف الأيام عن سرّه لم يُزل من عقيدته
ولم يُغير وَجّه التهمة المصوّبة الى (جان مانييه) . ولكن
أقواله لم تنزل من نفوس السامعين منزلتها . وسقطت
الحجة من يده فتلقّفها المحامى واطرّد له القول فقال :
لقد انقلب الأمر رأساً على عقب ، وأصبح المحكّمون
لا يرون أمامهم إلا رجلاً بريئاً
وأخذ الرئيس جانب المحامى وانحاز له المحكّمون
فسرّحوا (جان مانييه)
ولم يكن للمدعى بُدّ من أحدِ الرجلين ، فطلب القبض

على مادّين حين أفلّته (چان ماتییه) ثم كتب على المسكان^(١)
أمر القبض ، وخلا بالرئيس لتوقيعه ، فتردّد الرئيس بعض
الشيء ، وكان على طيبة نفسه وحِدّة ذهنه يتعصّب للملكية
وقد كان مادّين ذكر أمامه يومًا كلمة (الامبراطور) ولم
يذكر بجانبها كلمة (پوناپرت) فغاضه ذلك وحقدّها عليه .
وذكر له لشقوته تلك السالفة فهان عليه توقيع الأمر

وأُبرِد المدعى به بريدًا خصيصًا الى چافير (بمنترای
سيرمير) وتقدّم اليه بالإسراع ، وكان البريد فارسًا فذهب
يعدو مرسل العنان

وكان چافير قد غادر قاعة الجلسة حين فرغ من شهادته
كما قدمنا ، وعاد الى منترای سيرمير واتفق ان هبّ من
نومه ساعة وصل البريد

وكان البريد شُرطيًا من حُذّاق الشرطة فأنبى اليه
الأمر ، ووقفه بكامتين على جملة مامر من الحوادث
فقام چافير الى إمضاء هذا الأمر ساعة استولى عليه

ولو أن أحداً رآه وهو يلبج باب الدار التي فيها فانتين
ومادلين وكان ممن يجهلون بِنَاءَ هذا الرجل ، لما قام بنفسه
أن أمراً خطيراً قد حرّكه ، ولما تبين من وجهه غير لحيته
المألوفة ^(١) فقد كان هادئ السعي ساكن النفس بادي
الجد وهو يرقى الدرج

ولكن لوراه في هذه الساعة أحدٌ ملبس به الواقفين
على غريب طباعه ، لذعر من رؤيته . فقد كان زراً بَنِيْقَتِهِ
منحرفاً الى جهة الأذلا اليسرى بدلاً من أن يكون محرراً
إلى القفا

وكانت تلك آية على هياج غريب في نفسه . فقد كان
الرجل نظامياً في واجبه ولباسه الرسمي . فهو لا يترخص
مع المجرم كائناً من كان ، ولا في إحكام لباسه الرسمي وتفقد
أزراره من جميع ضواحيه

فانزعاج الزر من مكانه حادثٌ لا تأذن له بالوقوع إلا

(١) لحة الوجه وجمعها ملامح ولا يقال ملامح الوجه ولكن ملامح النظر أى

محل سقوطه

فَوْرَةٌ فِي النَّفْسِ ، كَانَتْ أَشْبَهَ الْأَشْيَاءَ بِالزَّلَالِ فِي الْأَرْضِ
وَكَانَ قَدْ اصْطَحَبَ أَرْبَعَةً مِنَ الْجُنْدِ وَكَبِيرًا لَهُمْ ،
وَأَمْرًا سَائِرُهُمْ بِالْتَرَبُّصِ فِي الْفَنَاءِ .

وَلَمَّا سَأَلَ الْبُؤَابَةَ عَنْ مَادِلِينَ لَمْ تَتَرَدَّدْ فِي أَنْ تَدُلَّ عَلَيْهِ ،
فَقَدْ أَلْفَتَ أَنْ يَسْأَلَهَا عَنْهُ الْجُنُودُ وَهُمْ شَاكُوا السَّلَاحَ
وَلَمَّا بَلَغَ مَخْدَعِ فَاتَتَيْنِ أَدَارَ الْمِفْتَاحَ وَدَفَعَ الْبَابَ دَفْعًا
لِيَتِمَّ كَأَنَّهُ مَمْرُصَةٌ تَحْرُصُ عَلَى رَاحَةِ مَرِيضِهَا وَمُسْتَرْقٍ لِلْسَمْعِ
ثُمَّ دَخَلَ وَلَوْ أَحْسَنَّا الْقَوْلَ لَقُلْنَا لَمْ يَدْخُلْ

فَقَدْ وَقَفَ فِي حَرَمِ الْبَابِ ، وَقَلَنَسُوهُ عَلَى رَأْسِهِ
وَأَزْرَارَ لِبَاسِهِ الرَّسْمِيِّ مَطْمَئِنَّةً فِي عُرَاهَا ، وَقَدْ عُلِقَ فِي أَثْنَائِهَا
يَدُهُ الْيَسْرَى وَكَانَ رَأْسُ عَصَاهُ مُطْلَاً مِنْ خَلْفِ مَرْفَقِهِ

فَلَبِثَ كَذَلِكَ دَقِيقَةً أَوْ بَعْضَ دَقِيقَةٍ وَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ أَحَدٌ ،
وَاتَّفَقَ أَنْ رَفَعَتْ فَاتَتَيْنِ عَيْنَيْهَا فَلَمَحَتْهُ وَأَنْذَرَتْ بِهِ مَادِلِينَ
وَفِي اللَّحْظَةِ الَّتِي التَّقَى فِيهَا النَّظْرَانِ ، حَالُ جَافِيرٍ وَهُوَ

جَامِدٌ فِي مَكَانِهِ إِلَى صُورَةٍ مَفْرُوعَةٍ

وما من شعور بشرى في نفس هذا الرجل هو أقدر
على التمثيل في صورة الفزع من شعور الفرح وقد طنى عليه
فقد قلب سحنته الى سحناء مارد يريد أن ينقض على طريدته
وكان يقينه من القبض على چان فالچان بعد لا ي ، قد
فَضَحَ ما كان كامناً في نفسه وبَسَطَ على ظاهره ما كان
يضطرب في زوايا باطنه

وأصبحت الغضاضة التي كان يجدها في نفسه حين
أخطأ ترسم الأثر ولم يُصب الساكلة في أمر (چان ماتيه)
وقد محاها زهو دخل في نفسه حين علم أن فراسته لم تخطئ
وأن شعوره لم يخنه في تعقب چان فالچان

وتجلت في جبهته الكثرة دمامة منظره عند ظفره ،
فكان ذلك أبين ما يقرأ من آيات الشناعة في سحنة بلغت
مناها

وفي هذه الآونة كان جافير ، وقد رفعه الفلك وناجاه
الملك ، لا يشمر بحقيقة موقفه حق الشعور ، لكنه لم يخل

من شعور مبهم بنججه وضرورة الحاجة اليه

فقد كان يمثل في ذات نفسه تلك القوات العلوية من العدل والحقيقة والنور ، وهي تعمل متساندة على سحق قوة الشر فكان كأنه يُحس أن حواله مدى لاحد له من السلطان والعقل ونفاذ الرأي والإيمان باكبار حرمة القانون والقضاء المبرم والقصاص الاجتماعي ، وكل ما في ذلك الفلك من قوة ولا عجب فقد كان يحمي النظام ويستنزل صواعق القانون وينتقم للمجتمع وينفذ المشيئة ويمضي القدر وينهض في المجد نهوضاً

ولم يخلُ نصره وإن كان مبيناً من بقية للتحدى والكفاح وقف في أوج السماء مشرقاً الوجه مزهواً وقفة جبار من طواويس الملائكة تجلت فيه بهيمية ^(١) دونها بهيمية البشر

(١) لم نقل بهيمية وقلنا بهيمية اتباعاً لائحة الكتاب في الفلسفة والأخلاق والادب كابن جني وابن مسكويه والجاحظ فقد نفرت أذواقهم منها كما نفرت من طبيعته فقلوا بهيمية وطبيعية حتى أن سيديو به رأس النعانة قد قال أن فيهما لغية وأرجو أن تصبح لغة بأذن الله

وما أَخَذَتْهُ عَيْنٌ وَهُوَ يَزُولُ أَعْمَالُهُ الْخَفِيفَةُ ، إِلَّا
أَخَذَهَا مِنْ خِلَالِ ظِلَالِهَا بِرَيْقِ سَيْفِ الْجَمَاعِ وَهُوَ يَلْمَعُ
فِي قَبْضَتِهِ

وكان يشعر بسعادة في استنكار ما يرى ، وقد ورطى
بأخصيه هَامَ الجرائمِ وقِيدَ بعَقَبِيهِ الْعَصِيَانِ وَالْفَسَادِ
وَالشَّرَّورِ وَكَانَ يَتَفَجَّجُ نُوراً وَهُوَ يَسْتَأْصِلُ مِنَ الْفَسَادِ
وَالشَّرِّ

وقد تجلّت في تلك النفس الطاهرة العنصر ، البشعة
المنظر ، عَظْمَةٌ لَا يَخْتَلِفُ فِيهَا اثْنَانِ
وَلَمْ يَلْعَقْ بِهَذَا الرَّجُلِ الْخَفِيفِ دَنْسٌ وَلَا طَارَتْ حَوْلَهُ
دَنِيَّةٌ

إِنَّ الْإِسْتِقَامَةَ وَالْإِخْلَاصَ وَسَلَامَةَ الْفِطْرَةِ وَمَحْضَ
الْيَقِينِ وَتَمَثُّلَ الْوَاجِبِ ، كُلُّ أُولَئِكَ الْفَضَائِلِ إِذَا حَادَّ بِهَا
صَاحِبُهَا عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ تَرَأَّتْ لَكَ فِي صُورٍ مُنْكَرَةٍ ،
وَلَكِنَّهَا عَلَى مُنْكَرِهَا وَدِمَامَتِهَا لَا تَزَالُ كَاسِيَةً بِالْعَظْمَةِ

فاجلال تلك الصفات طبيعة من طبائع النفس
البشرية

إن لكل شيء آفة ، وآفة الفضيلة ، العدو لها
عن القصد

للمتعصب في دينه وهو في عنفوان فورته فرح
شريف النزعة وإن لم يعرف الرحمة ، يلزمه ما أدري أي
لألاء ، لألاء فيه جلال ولكن تمازجه الفجيعة

وكان چافير وقد بلغ مناه ، على حال يرثي لها - وكذلك
الجاهل إذا فاز - فما كان لعين أن تستريح الى ذلك الوجه
الذي تجلّى فيه كل ما يمكن أن يكون في طيّب من خبيث



لم تكن فانتين قد لحمت چافير منذ اليوم الذي انزعها
فيه مادلين من يديه انتزاعا . ولم يقو عقلها المضعوف على
إدراك شيء . غير أنها لم تخل من الشك في أمره لغشيانه

مخدعها . وكان أكبرُ ظنّها أنه إنما أتى يريدّها . فخافها العزم
ولم يستطع نظرها القراء على ذلك الوجه المنكر ، وأحسّت
الحَيْنَ ، فسترت وجهها بيديها وصاحت بمادلين صيحة اليأس :
نَجِّنِي مِنْهُ . فأجابها بصوت يَقْطُرُ سَكِينَةً ورقة

إهدائي أنت فإنه إنما جاء يريدني
ثم التفت إلى جافير وقال له : إني لأعلم ما تريد
وصاح به جافير

إذا فهيا

انطقها بوحشيّة زحمت في حلقة مخارج الأحراف
وطمست على معالمها نخرجت وهي بالزئير أشبه منها بالكلام
ولم يجرّ جافير على الطريقة المألوفة فلم يُفِضْ معه
في حديث ولم يعمد إلى إبراز أمر الاستدعاء
فقد كان يعمدُ جان فالجان محاربا خفيا يُفْلِتُ كل من
قامت بينهما حرب تحت أروقة الظلام فلبث خمس
سنين يجالده ويصارعه فلم يَقْوِ على صرعه ، ولم يكن أمر

القبض بدء ذلك المراك، ولكنه كان الختام - فإزاد على
أن قال له : إذاً فهياً

قأها ولم يخط خطوة ولكنه أتى على جان فالجان
نظرة كالمحجن^(١)

تلك النظرة التي اعتاد أن يجذب بها إليه جذب
العنف أولئك المنكودين من البائسين

تلك النظرة التي نفذت الى نخاع فانتين قبل اليوم
بشهرين كاملين

وعند تلك الصيحة فتحت فانتين عينيها فرأيت مادلين
بحيث كان، فشد ذلك منها بعض الشيء، ثم أجالت تلك
المسكينة نظراً حاراً فلم تر في المخدع غير مادلين وغير
الراهبة، فقام بنفسها أنه لا يريد بتلك الصيحة سواها

رأت في تلك اللحظة شيئاً غريباً لم تكن لتراه حتى
في عنفوان هذباتها، رأت عينا^(٢) من الشرطة يلب^(٣)

(١) المحجن آلة يجذب بها الشيء كالخاطوف وغيره (٢) جاسوس (٣) يأخذ بتلابيبه
أو بخنقه أي يجمع ثيابه عنده مدره ونحوه ويجره منها جراً

شريفًا من سرّوات الناس ، والعينُ شامخُ الانف والشريفُ
منكّس الرأس

نخيّل إليها أن الدنيا قد شمرّت للزوال
وكان جافير قد أخذ في الحقيقة بتلايب (جان فالجان)
فصرخت فانتين : سيدي الشيخ

فضحك جافير حتى بدت نواجذه وقال : ليس هنا من
ينادى بسيدي الشيخ ، فلم يعالج جان فالجان أو يزحزح
عن خناقه يد جافير ، ولكنه قال له : جافير ، فقاطعه
جافير قائلاً :

قل سيدي المفتش ، فقال له

سيدي إن لي معك كلاماً

فقال له

ارفع به صوتك فكذلك أكلّم

قال إنه رجاء

قال له اجهر بصوتك كما أمرتك

قال : إنه رجاء يحسن أن لا يسمعه سواك
ثم داناه وألقى في أذنه : أرجئني ثلاثاً أبحث فيها عن
بنية هذه المسكينة وادفع لأصحاب النزل نفقة إيوائها ولك
أن تصحبني إذا شئت

فقال چافير أراك تمزح وما عهدتك قبل اليوم محققاً
وسقطت تلك الكلمات إلى أذن فانتين فاضطربت
في سريرها وصاحت : ويلاه أليست بنيتي هنا كما يزعمون ؟
ثم صاحت أيتها الأخت أين بنيتي ، وأنت أيها السيد
مادلين ؟

فضرب چافير برجله وصاح بها ، إياك أن تنبسي
أيتها الشقية

أراني اليوم في بلد يُنادى فيه المجرم بألقاب التسويد
وتُكرّم فيه البغي كأنها من فضليات الحرائر

ثم نظر إلى فانتين ، ويده تريد في تضيق الخناق على
(چان فالچان) وقال لها : ألم أقل أن ليس هنا شيخ ولا

سيّد وإنما هنا لصّ مجرم وفاتك أئيم يدعى چان فالچان ؟
 فاستوت فانتين فى سريرها وتنقلت بنظرها من
 چان فالچان ، الى الراهبة ، الى چافير ، ثم فتحت فاهها تريغ
 الكلام فلم يرم حلقها بغير الشخير ، ثم اضطكت أسنانها
 وأبسط ذراعاها كأنها غريق يبحث عن شىء حوله ، ثم
 هوت على الوسادة فصدم رأسها سناد الوساد — وأسامت
 على أثر تلك الصدمة الروح

فوضع چان فالچان يده على يد چافير وهى ممسكة
 بطوقه وبسط قبضتها ، وكأنها يد طفل ثم قال له : لك
 الويل ، لقد قتلها

فصاح به چافير دع عنك هذا فما جئنا لنسمع ذلك
 المنطق ، فإن لم تنطلق معى فليس إلا القيد ، وإلا دعوة الجند
 وكان فى إحدى زوايا المخدع سربر عتيق من الحديد
 تستريح اليه الرهبات فى السهر ، فاندفع اليه چان فالچان

وَأَنْتَزِعَ فِي أَقْلٍ مِنْ رَجْعِ الْبَصَرِ سِنَادَ الْوَسَادِ رَغْمَ رَسُوخِهِ
فِي مَكَانِهِ ، وَأَيُّ شَيْءٍ يَتَعَصَّى عَلَى تِلْكَ السَّاعِدِ . ثُمَّ اتَّخَذَ مِنْهُ
جُنَّةً وَسِلَاحًا وَلَوَّحَ بِهِ فِي وَجْهِ جَافِيرٍ ، فَتَرَجَعَ مَذْعُورًا
إِلَى الْبَابِ

ثُمَّ مَشَى بِهِ مِشْيَةَ الْمُطْمَئِنِّ إِلَى سَرِيرِ فَائِتِينَ وَلَمَّا بَلَغَهُ
الْتَفَتَ إِلَى جَافِيرٍ وَقَالَ لَهُ : أَنْصَحْ لَكَ أَلَا تَدَانِي
فَأَوْجَسَ جَافِيرٌ خِيفَةً ، وَبَدَأَ لَهُ أَنْ يَذْهَبَ لِدَعْوَةِ الْجُنْدِ
لَكِنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَجِدَ جَانَ فَالْجَانَ نُهْرَةً لِلْفَرَارِ فَأَسْنَدَ ظَهْرَهُ
إِلَى عُضَادَةِ الْبَابِ ، وَنَظَرَهُ مَصُوبًا إِلَى غَرِيمِهِ

فَآرْتَفَقَ جَانُ فَالْجَانِ عَلَى قِمَّةِ السِّنَادِ وَجَعَلَ يَتَأَمَّلُ
فَائِتِينَ وَهِيَ هَامِدَةٌ ، وَلَبِثَ غَارِقًا فِي تَأْمَلَاتِهِ . وَمَا كَانَ
لِيُفَكِّرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَشْيَاءِ هَذِهِ الْحَيَاةِ ، غَيْرَ أَنَّكَ كُنْتَ
تَقْرَأُ فِي مَعَارِفِ وَجْهِهِ أَبْلَغَ آيَاتِ الرَّحْمَةِ

ثُمَّ اتَّخَذَنِي فَوْقَهَا وَجَعَلَ يَسَارُهَا — تَرَى أَيُّ كَلَامٍ كَانَ
يَلْقِيهِ عَلَيْهَا ؟ وَمَا عَسَى أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ الرَّجُلُ الْمُتَحَنِّنُ لِتِلْكَ
الْمَرْأَةِ الْمَيِّتَةِ

لم يقع ما قال في أذن الحى فهل وقع في أذن الميت
وما يدريك لعل في الأوهام المؤثرة شيئاً من الحقائق
السامية

روت الراهبة، سامبليس، تلك التى شهدت وحدها
ذلك المشهد ولا مغمز فى ما تروى — أنها قد رأت رأى
العين أثناء تلك المسارعة بسمة قد خطفت على فم الميتة وبريقا
قد لمع فى تلك الأحداق، التى غمزتها دهشة أهل القبور
ثم أخذ فى يديه رأس فانتين ووضع به برفق على الوسادة
كما تضع الأم رأس طفلها وأغمض بعد ذلك عينيها، وقد علا
وجهها إشراق سماوى — والموت أنتقال من عالم الظلمة
الى عالم النور

ولما فرغ من شأنها ركن أمام سريرها وتناول يدها
فقبلها ثم التفت الى چافير وقال له دونك ما تريد

سيق ماداين الى سجن المدينة وفشا نبأ اعتقاله
في أنحاءها ، فأقام الناس وأقعدهم ومشى بعضهم الى بعض
يتساءلون . وأنحازوا عنه حين علموا أنه مجرم عتيق ولم
ينشبوا أن نسوا حتى عوارفَه ، وقطعوا باجرامه قبل أن
يقع اليهم تفصيل ذلك الحادث (بآراس)

فمضى النهار وما تكاد تسمع في مناحي المدينة إلا
هذا اللغظ

ألا تدري؟ — أنه مجرم سُرح بعد العقاب — من
هو؟ — شيخ البلد — ويحك ما تقول؟ السيد ماداين! —
نعم — لا تقل هذا — إنه لم يكن يدعى ماداين — إن له
أسماء آخر ، لئلا أشنعه ، لقد كان يدعى ما أدري (بيجان) !
(جوان) !

وهل أعتقل

نعم

أفي السجن؟

في سجن المدينة ويتوقع نقله وإشخاصه الى دار المحكمة
ليسأل عن سرقة قد ركبها على الطريق المعبد في عهده الأول
إني لا أسكن الى هذا النبأ ، فقد كان الرجل طيبا
كاملا وكان من الزاهدين ، ألم تر كيف تأبى على وسام
الشرف يوم أنعم به عليه ؟ ألم تقع عليه عينك وهو يوالى
إسداء الحسنات ؟ فما سأل سائل إلا أعطاه ، ولا مرَّ بمُهدم
إلا نفحه ولا بمحزون إلا واساه

لقد كنت أُلح من وراء تلك الأعمال ماضيا غير محمود .
وقالت عجوز من المشتركين ^(١) في « علم ^(٢) السلام » .
لم يُثر هذا النبأ في نفسى حزنا على ذلك الرجل — إن

(١) قلنا من المشتركين ولم نقل من المشتركات اتباعا للاصحاح قال الله تعالى
« وكانت من القاتنين »

(٢) « علم السلام » جريدة يومية كانت تظهر في ذلك العهد

في هذا كِبَلاغا لاولئك «البونا بارتين»^(١)

وهكذا قد أُنمى بين عشية وضحاها شبحُ مادايين
من الأذهان ولم يبق على عهده في المدينة كلها إلا ثلاثة أو
أربعة منهم بوابته القديمة

وكانت قد دخلت عند دخول الليل غرفها وقبعت
فيها كاسفة البال تفكر فيما نزل بذلك الرجل الكريم
وقد أقفل المصنع على أثر ذلك الحادث وأقفر طريقه
ولم يبق في الدار غير الراهبة (بريتي) وأختها (ساميليس)
كانتا تتناوبان السهر على تلك الميتة

وعند الساعة التي أعتاد فيها مادايين العودة الى داره
قامت البوابة وأخرجت من درج لها مفتاح باب مخدعة
وعلقته في مسمار مرشوق بالحائط ونصبت الشمعدان
في مكانه المعهود، كما كانت تفعل في كل مساء، ثم أخذت
في التفكير

(١) نسبة الى بونا بورت (نابوليون)

فعلت كل ذلك بدافع العادة لا بدافع الإرادة
ومرَّ بها ساعتان وهى على تلك الحال ثم عادت الى
نفسها ولم تنشب أن صاحت

إلهى من ذا الذى علق هنا هذا المفتاح
ووقع فى نفس هذه اللحظة أن فُتح زجاج النافذة .
وأُمتدت يده من فرجته فالتقطت المفتاح وأنارت الشمعدان
فرفعت عينيها وهى مفتوحة الفم وقد وقفت فى حلقها
صبيحة

إنها تعرف تلك اليد ، ولا تنكر تلك الذراع ، ولم
يكن كُفُّ ذلك الرداء عنها بالغريب
إنه السيد مادلين — فمرَّ بها بضع ثوان وهى معقودة
اللسان (كما حكى عن نفسها) وهى تروى ذلك الحادث —
ثم انحلت عقده فصاحت : سيدى الشيخ لقد ظننتك
ثم أمسكت عن الكلام كراهة أن يبدر منها ما يكون فيه
تحقير لذلك الرجل الذى كان لا يزال عظيمًا فى نفسها

فأسرع مادلين وأتم لها جملتها فقال : — في السجن
نعم كنت فيه فكسرت إحدى عوارض النافذة
وهبطت من على سطح هناك ، وها أنذا كما ترين أعود الى
مخدعي ، فأذهبي أنت الى الراهبة (ساميليس) وقولي لها
إني في حاجة اليها

فأطلقت العجوز تعدو ، ولم يوصها بشيء ، فقد كان
يعلم أنها عليه أحرص منه على نفسه

ولا يعلم خلق كيف خَاصَ هذا الرجل الى ذلك
الفناء وهو لم يُعْمَل في الباب الكبير مفتاحاً

لقد كان يكون معه المفتاحُ (القلابة^(١)) الذي يستخدم
لفتح أبواب الجوانب . لكن من الحتم أن يفتش السجين
عند دخوله في السجن ويُنزع منه ما يحمل من أداة . فهل
عمى الموكلون بسجنه عن ذلك المفتاح — لقد لبث هذا
الأمر غامضاً

(١) القلابه كلمة عامية يعبرون بها عن المفتاح الصغير الذي يفتح جميع
البواب واخترت هذه الكلمة لانطباقها على المعنى المراد
فكلمة قلابه تفيد أنها تقلب السنة جميع الاقفال

صعداً في الدرج إلى مخدعه ثم ترك الشمعدان على
الدرجة العليا ، وفتح باب المخدع بلا تخرج فصرَّ الباب
صريراً ولكنه لم يباله ، وولج في الظلام

وجعل يتقرَّى بيديه ويتلمَّس النافذة حتى أصابها
فأغلقها وأحكم إغلاقها . ثم عاد فحمل الشمعدان وأثار المخدع
وكان من الحزم أن يأخذ بتلك الحيلة فقد كانت
النافذة مغطاة على الطريق

ثم أتى نظرة عجلى على ما في ذلك المخدع من متاع
فكان على غاية من النظام ، ولم يبق فيه ما يدل على أثر تلك
الليلة غير قطعة الغلام وقد أسودت من النار وغير بقايا عصاه
فأخذ يبيضها خطَّ فيها هذه الكلمات : -

هاكم بقية عصاى وقطعة الغلام الفضية التى ذكرتها
أمام المحكمة

ثم لفَّهما فى تلك الوريقة ووضعها بحيث تأخذها عينُ

الداخل

ولفّ بقايا الشمعدانين في خِرْقَةٍ وجعل يحزمها وهو
أهدأ ما يكون نفساً . وكان يمضغ كِسرة من الخبز الأسود
ولعله حملها معه حين فر من السجن . وقد وجد منها فُتاةً
على بلاط المخدع ، وجدهُ المحققون حين حضروا للمعاينة
داره بعد اختفائه

طُرِقَ عليه البابُ فأذن للطارق ، فدخلت الراهبة
(سامبليس) وهي صفراء اللون محمرة الخدق

ولا يسلم المرء وإن كان جَلَدًا صبوراً من أن يتسرب
إليه الوهنُ أمام بأس الأفضية والمقادير

وكانت حوادث ذلك اليوم المشهود قد ردت الرهبة
إلى طبيعتها من الضعف والخور فجَزَعَتْ وبكت ، وكذلك
تَبَكَى النساء

فمدَّ لها (جان فالجان) يده بورقة وقال لها : أيتها
الأخت أرجو أن تحملي هذه الورقة إلى القسِّ ، وكانت
الورقة مطوية ، فألقت عليها الراهبة نظرة ، فقال لها : لك
أن تقرئي مافيهَا

فقرأت — أرجو سيدى القس أن يقوم على ما خلفته
هنا من المال ، وأن يُنفق على دفن المرأة التى قضت فى هذا
اليوم ، وأن يرصد ما تبقى للفقراء والمساكين
حاولت الراهبة أن تنطق بخافها النطق ثم تمكنت بعد
الجهد من أن تقول : —

ألا يريد سيدى الشيخ أن يتزوّد من تلك البائسة
بنظرة الوداع
فأجاب ماداين إنهم على أثرى وربما أدركونى هناك
فمكروا عليها صفو نومها الأبدى
وما هو إلا أن قالها حتى سمعوا ضجة ووقع أقدام على
الدرج

وسرى اليهم صوت البوابة وهى تقول : —
أقسم بالله أن أحداً لم يدخل ، وأننى لم أرم مكافى من
الباب بياض النهار وسواد الليل — وسمعوا صوت رجل
يقول : وما هذا النور بالخدع ، فمرفوا منه صوت (جافير)

وكان باب الخدع يوارى عند فتحه الزاوية اليمنى من ذلك المكان فأطفأ جان فالجان شمعته وأختبأ في تلك الزاوية وسقطت الراهبة على ركبتيها بجوار المنضدة — وفتح الباب وظهر چافير على العتبة — وجعلت الراهبة تصلى وكانت قد نصبت شمعتها على المدفأة فلمح چافير على ضوءها الضئيل تلك المصلية، فسمر في مكانه

وچافير كما تعهد، بما بُنى عليه طبعه وبما كسبه من البيئة التي يعيش فيها والمضطرب الذي يتقلب فيه، كان على جانب عظيم من إكبار السلطة في شتى مظاهرها. فهو يُعظمُ سلطان الدين كما يعظم سلطان القوانين، وينزل الراهب منزلة المعصوم من الخطأ والراهبة منزلة المعصوم من الخطيئة

تلك أرواح مُسَوِّرة في هذه الدنيا بسور له باب واحد، لا يفتح إلا لتخرج منه كلمة حق ولما لمح چافير الراهبة هم عند الوهلة الأولى

بالانصراف . ثم ذكر واجب مهنته فوقف وتجاسر على
سؤالها وهو يعلم أنها امرأة صديق ، ومكانها من نفسه
مكانها

أيتها الأخت :

هل أنت وحدك في هذا الخدع ؟

فرفعت عينها وقالت :

نعم —

فقال جافير :

أعذريني على هذا الإلحاح

ألم ترى رجلا في هذه الليلة فإني أدمق مجرما يدعى

(جان فالجان) قد فرّ من السجن

قالت :

لا

فأنحى جافير وسلم وعاد من حيث أتى وهو بها أوثق

ما يكون

كذبت الراهبة ثم كذبت :

كذبت مرتين علي التعاقب

إيه أيتها العذراء الطاهرة . إنك لم تكوني من أبناء

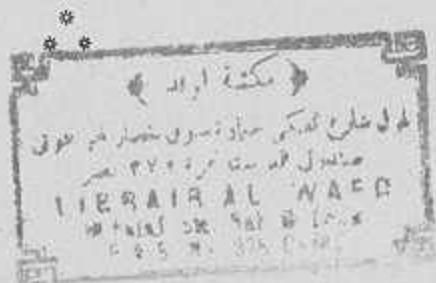
دنيانا

وقد مرّ بك سنون وأنت تلابسين الطواهر من

أخواتك العذارى ، والأطهار من إخوتك الملائك ،

ولسوف تُسألين عما جرى علي لسانك من الكذب ولكن

في دار النعيم



وبعد هذا الحادث بساعة أو شَيْعِهَا^(١) رَوَى غير
رجل مُهرول بين الشجر وقد ركب طريق باريس ولم يكن
(جان فالجان)

وقد أرتدى رداء عامل ولم ندر من أين أتى به، ولعله
رداء العامل الذي مات في المصنع منذ أيام. وقد آن أن
نُشِيعَ فَاتَيْنِ بِكَلِمَةٍ

إِن لَنَا أَمَّا وَاحِدَةٌ

هِيَ الْأَرْضُ

وقد رجعوا فَاتَيْنِ إِلَى أَمِّهَا

وَقَالَ الْقَسُّ:

ليس من البرّ أن أنفق من مال هذا المجرم على دفن
تلك البغي ولا سكن البرّ أن أرصده للنفقة على الفقراء
والمساكين، ثم تجوّز^(٢) في دفن تلك البائسة وألقى بها
في مقابر الصدقة، فأختلطت عظامها بذلك الرفات:

(١) قريبا منها (٢) تساهل

دُفَات من سبقها ومن يلحقها من الأموات
وغابت في غياهب تلك الحفرة التي لم تكن لأحد
وهي لكل أحد

وذهبت روحها إلى مقرّها ومستودعها وسبحان من
يعلم وحده أين ذلك المستقرّ

وهكذا أنيمنت فانتين في ظلمة تلك الحفرة وأنطوت
في رماد تلك الأمشاج ، فكان لحدها أشبه شيء بسريرها .





مؤلفات ابراهيم زيدان

وهي تطلب من مكتبة الهلال بشارع الفجالة بمصر

مليم	قرش	
١	٥	الطريقة المبتكرة لتعليم القراءة العربية مشكلة ومزينة بالرسوم أول
٣		» » » » » » » » ثاني
٤	٥	» » » » » » » » ثالث
٦		» » » » » » » » رابع
٧	٥	» » » » » » » » خامس
١٠		مبادئ الحساب ٤ أجزاء
١٢	٥	الجغرافية الابتدائية مزينة بالرسوم ٤ أجزاء
٦		مبادئ الهندسة » جزان
٨		دروس الأشياء » »
١		المبادئ الانكليزية على أسلوب جديد
٧	٥	تحويل العملة المصرية والفرنساوية والانكليزية والسورية والاميركانية
٦		سراثر العشاق ، وهي رواية غرامية أدبية

مؤلفات أخرى

٢٥	محاضرات الادباء ومحاورات " شعراء والبلقاء للاصبهان
٢٠	ألف يوم ويوم مزين بالرسوم تعريب وهيبه منصور
١٢	الاجنحة المتكسرة لجبران خليل جبران
١٢	الارواح المتمردة » » »
٦	عرائس المروج » » »
٦	فلسفة الحياة لتولستوى
٤	السلطة والحرية »
٤	كلمات الفلاسفة لبياوي غالي
١٠	علم التنجيم بالطرق العلمية الحديثة مزين بالرسوم
١٠	الانشاء العربي لابراهيم عبد الخالق



Princeton University Library



32101 054943087

P